قدِّيسةٌ شَمْسُ الليالي

مجموعة قصصية

علي عواد عبدالله

2020

المحتويات

ت	العنوان	الصفحة
	جدران القصاص	
	أُغرقُها بيأسي	
	الخروج من الذاكرة	
	نهر الغين الثانية	
	أنثى لربعنا الخالي	
	طائر الزقاق القديم	
	قديسةٌ شمس الليالي	
	مخاضٌ تحتَ سعف النور	
	مرآة الغياب	
	حفنةُ الياسمين	

إهداء . . .

قارورةٌ

وسلافةٌ أخرى
وقصيدة تُسقى ولا تُقرا
وسحابة سمراء
أثثتها بيدي
وتركت قلبي تحتها مطرا
أنا لم أزل ضوءاً تراوده
شمسٌ تلملمه في حضنها قمرا
أنا لم أزل
تكتظ بي دعةٌ
متورطاً في لوعة الذكرى
حتى وقفتِ على الطلولِ أميرةً
تنساب نحوكِ ألفُ أمنيةٍ
وتمشطين من الهوى عطرا
وتقلبين قلوبهن
على رصيف جداولي
ما بين غاويةٍ وخطيئةٍ كبرى
وتلونين يد الربيع
ترتبين حروفهن على جبين مواجعي
لأكون أنتِ
منعمٌ وملغمٌ أتنفسُ الأيام والعمرا

جدرانُ القَصاص

تغيّر طعم الدُخان، أحسّ بحرقة في لسانه، لم ينتبه إلى أن النار بدأت تأكل بالجزء الأخير من السيجارة، نظر إليها بتأمّل قبل أن يكتم أنفاسها في "مطفأة السجائر" ظل يعبث بها وكأنه لا يريد لها أن تعيش، كأنها طبشورة باردة يرسم بها خطوطا ومربعات غير مفهومة، وضع كلتا يديه في حجره طأطأ رأسه إلى الأرض، ظل واجماً كئيباً تخنقه الوحدة ويعتصره الاغتراب، لا يكاد يطفأ النار في سيجارته حتى تشتعل به، فالسيجارة هي الكائن الوحيد الذي يشعره بالمشاركة والتفاعل والنشاط، ومع هذا فإنه يعاملها بقسوة فبعد أن يمتصّ روحها يرمي بها في سلة المهملات، بعد لحظات تناول علبة السجائر شنقَ بشفتيه ضحيةً جديدة، نظر إلى قلب العلبة أحسّ بضيق لمّا أدرك أنه يجهز على الضحية التاسعة عشرة (قبل الأخيرة)، أسند ظهره إلى الحائط وهو يتأمل الشقوق المرسومة على وجه السقف سحبَ نفساً عميقاً تغلغل في عروقه وأحشائه ثم زفره إلى السقف كان يستمتع وهو يشاهد الدُخان يتصاعد كالبركان في سماء الغرفة، نقراتٌ على الباب تدخل أمه وفي يدها كوبُ الشاي، وما أن دخلت الغرفة المشبَعة بالدخان حتى لزمتها نوبة السُعال، قالت وهي لا تزال تلفظ اختناقها: يا بني ارحم نفسك من هذا السم . . !

وضعت الشاي أمامه وسارعت إلى فتح النوافذ، أحزنتها الحال التي يمر بها نذير أمست حاله لا تسر جلست إلى جانبه ونظرت إليه بعين العطف، قالت بعد أن تصدعت روحها إشفاقا عليه:

- حبيبي إلى متى وأنت تحبس نفسك في داخل هذا السجن؟ مضت ثلاثة أشهر وأنت منكبٌ على نفسك لمَ لا تخرج وتستمتع باستنشاق الهواء النقي؟ الجيران يسألونني عنك دائماً، لا يمكن أن تبقى هنا هكذا وتحرق شبابك أمام عيني.

أحسّ بالذنب وأشفق على أمّه قبل أن يشفق على نفسه أجابها بصوت مخنوق:

- إن شاء الله أمي . . إن شاء الله

افترّ ثغرها عن ابتسامة جميلة واستبشرت بكلامه خيراً شعرت برغبة كبيرة في التحدث إليه وإغرائه بكل شيء، بدأت تحدثه عن أخبار المحلة، عصام الابن الأكبر لملا حكيم يتزوج رحمة ابنة الوكيل عبد الرؤوف، وعماد ابن أبي زياد يعقد على ورود ابنة عمه، وزوجة الأستاذ غسان تنجب طفلا رائعاً بينما زوجة أخيه صبحي في شهرها الأخير، لم تمل أمه من الحديث معه على الرغم من انه لم ينبس بحرف ظل طوال الوقت مصغياً لحديثها، كان يعلم أنّ وراء هذه المقدمات أمراً ما، سكتت أمه للحظات ثم واصلت:

- نذير ما رأيك بزهراء ابنة خالك ؟

ابتسم لها وشعرت بالراحة فقررت مواصلة العرض فظلت تحدثه عن جمالها وعينيها السوداوين وشعرها الفاحم ووجهها المشرق وقدها الممشوق لكنها قاطعها كأنه يريد إنهاء الصفقة أو تأجيلها:

- أمي نتحدث في هذا الأمر لاحقاً، أشعر بالنعاس أريد أن أنام قليلاً . .
- حسنٌ بني كما تحب . . .

انسل إلى فراشه وغطّته بحنوٍ وعطف ثم غادرت الغرافة بعد أن أطفأت النور وأغلقت الباب.

حاول أن يستدرج النوم ولكنه لم ينجح، أغمض عينيه لفترات طويلة دون أن يفوزَ بإغفاءة قصيرة، تملكته موجةٌ من اليأس وانتابه شعورٌ بالإحباط، ثلاثة أشهر مضت ونذير خارج السجن وخارج الحياة لم يتمكن من العودة إلى لعبة الحياة بعد أن أخرجه الأشرار منها رغماً عنه، خسر فيها كل ما يملك، الحرية، الكرامة، الإنسانية، الإحساس بالوجود، الإحساس بالأمان، كلها أشياء فقدها بعد تلك الليلة السوداء التي لم تغب عن باله يوماً عندما اقتحم الأمريكان بيته وحطموا كل ما يملك وسرقوا ونهبوا أرهبوا الناس في تلك الليلة ثم وضعوا كيسا بلاستيكياً في رأسه واقتادوه إلى "العربة المدرعة" رغم الضجيج والهلع والصراخ كان لا يسمع سوى صوت أمه وهو يتضاءل ويتلاشى مع الابتعاد عن البيت، مضت سنتان ونصف وهو لا يعرف عن أهله شيئا وهم لا يعرفون عنه شيئا ثم تم الإفراج عنه بداعي تشابه الأسماء بعد أن تم القبض على المتهم الحقيقي (نذير محمد علي)، قدموا له اعتذاراً وكتبوا له ورقة تعويض ما أن خرج من المعتقل حتى مزّقها وحلّقها في السماء، لم يكن ليحيا واقع الصدف والمغالطات ظلت حياته بلا معنى.

أحسّ نذير برغبة عارمة في العودة إلى السجن من جديد بداعٍ أو بلا داعٍ، تربطه الآن علاقة روحية مع بعض الأشخاص المتضررين داخل السجون والتي تشابهت محنهم وتطابقت قضاياهم، تقلّب في فراشه حاول أن يهيأ نفسه للنوم لكنه لم يقدر ظل واجما كئيباً، بعد ساعات من الصراع المضني يغفو تداهمه موجة أحلام ورؤى متداخلة غير مفهومة اختُزلت برؤيا لؤي شعر بالاحتراق وهو يرى لؤي يمسك بصورة ابنته زينب عانقه بقوة حاول أن يخفف عنه:

- احتسب إلى الله صديقي ولا تيأس فإن الفرج آتٍ
- حسبي الله ونعم الوكيل
- صدقني . . لن تدوم هذه الحال طويلاً، ستعود إلى أمك وزوجتك وابنتك زينب، وستحتفل بعيد ميلاده القادم إن شاء الله، وتسعد بهم مدى الحياة . . . صدقني

ندت عنه تنهيدة أحرقتها الآلام:

- . . . الله كريم

زعق الحارس (انتهت المقابلة)، استيقظ من إغفاءته القصيرة زحف بعينيه على سقف الغرفة تأمل الشقوق، مدّ يده فتحسس الجدار كأنه يشكّ في وجوده، ازداد شوقه إلى لؤي فكر ملياً بالعودة إلى السجن فليس في خارجه ما يستحق البقاء.

في صباح اليوم التالي قرر أن يزور بيت لؤي ويتفقد أحوال أهله، في المحلة الشعبية الواقعة في حي النضال شرقي المدينة ترتسم ملامح الوجع في وجوه الناس وتصحو أحلامهم على فواجع اليقظة يزحف البؤس على جدران البيوت نحو مشانق السقوف، في بداية الجانب الأيمن من الطريق المؤدي إلى السوق تسكن عائلة لؤي، وقف أمام الباب ثم نقر عليه، فتساءل صوتٌ رجولي غليظ:

- من؟

ارتبك وشعر بالاستغراب، لم يعهد أن في بيت لؤي رجلا غيره، أجاب بتلعثم:

- . . . أنا أنا

فُتحَ الباب وأطل رجل بدين قصير القامة بملابسه الداخلية، تتقدمه كرشٌ كبيرة، جزءها السفلي ظاهر للعيان، يكتسي صدره بشعر منفوش تلمع تحته حبّات العرق، يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة تقدح عيناه بالضجر والاختناق:

- نعم . . ؟
- أاااا عفوا أليسَ هذا بيت لؤي حميد؟

صرخ الرجل بوجهه:

- أوهووووه يا أخي يلعن أبو لؤي، متى نخلص من هذا الكابوس المقيت، متى؟ متى ؟ ليس بيت لؤي هذا ليس بيت لؤي . . .

دخل وأغلق الباب بقوة وترك نذير متسمراً عند عتبة الباب، ولا يزال صوته الغليظ المزعج يزلزل المكان وهو يتلفظ بألفاظ بذيئة يشتم بها لؤي وكل من يأتي ويسأل عن لؤي.

جرجر خطاه المتثاقلة نحو خيبة جديدة في الجهة المقابلة كان يجلس طفل صغير يشاهد الحادثة من بعيد ثم جاء راكضاً استوقف نذير وأخبره بأن الحاجة أم لؤي باعت البيت لهذا الرجل وذهبت هي وبقية العائلة ليسكنوا في القرية، ضاق صدره ولم يستطع أن يحسر في عينيه دموعه الندية، واصل طريقه نحو المجهول، كان يتأمل أن يرى ذويه ويتفقد أحوالهم أن يحمل زينب بين ذراعيه ويقبّلها بالنيابة عنه، اكتأب وضاق صدره لمح في نهاية الشارع العام مقهى يجلس فيه مجموعة من كبار السن، جلس وطلب كوبا من الشاي، لم يعد يحس بمذاق للأشياء، تساءل بصمت كيف ستكون ردة فعل لؤي عندما يعلم بما حصل؟ تمنى لو أنه الآن بين تلك القضبان لا يعرف شيئا عن هذا الجحيم، في داخل المقهى ثمة رجل أشيب تغطي عينيه نظارة سميكة تظهر عليه آثار الرغد والثراء ظل يراقبه بنظراته المثيرة كلما رفع رأسه وجده يحرك نظارته وهو يحملق فيه، حاول أن يتجاهل الموضوع وفكّر بالخروج لكن الرجل سبقه في الوقوف أمامه استفهم نذير بإيماءة من رأسه، ثم ابتسم الرجل وبدد شيئا من المخاوف:

- تسمح . . .

قدّم نذير له المقعد:

- . . . تفضل تفضل

سحب الرجل الأشيب المقعد وجلس إلى جانبه، قدم له سيجارة "ماركة" بطريقة استعراضية ابتسم له نذير ولا يزال يجهل شأن هذا الرجل، تعالت خيوط الدخان ولا تزال الحيرة تخيم على المكان، بعد لحظات ألصق الرجل رأسه برأس نذير وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- حركة بسيطة منك تكسبك ذهباً . .

تراجع نذير إلى الوراء مبعدا رأسه عن الرجل، قال بارتياب:

- أيةُ حركة ؟ وأيُّ ذهب ؟
- اسمع منذ مدة وأنا أبحث عنك، وذهبت إلى البيت وأخبرتني والدتك بأنك خرجت، وتوقعت أن أراك في المقهى ولحسن الحظ أنا معك الآن.

افتعل نذير السعال ليفسح لنفسه فرصة يفكر من خلالها في مواجهة هذا المخلوق:

- عمو هل تعرفني من قبل؟ فلم يسبق لي أن رأيتك؟

- اخفض صوتك ولا تضيع الوقت في هذه الأسئلة، اسمع ما رأيك لو نغادر المقهى ونتجول بسيارتي في المدينة؟

تردد نذير لم يتشجع على القيام، وبّخه الرجل الأشيب:

- قم يا رجل هل تخشى من عجوز مثلي ؟ قم ولا تخف

انطلقت بهما السيارة إلى جهة المدينة، أثناء الطريق استأنف الرجل كلامه مع نذير:

- اسمع أريدك أن تصغي إليّ جيدا ولا تقاطعني حتى أنهي كلامي، ممكن؟

شعر حسن بالغثيان من شدة التوتر:

- لن أقاطعك ولكن قلّي ما شأنك؟
- أنت تعرف يا نذير أن هذه الحياة فيها من هو أهل للبقاء فيها وفيها من هو أهل للمحو منها، ليس الناس جميعا على درجة واحدة من الشرف والرقي، ثمة الشريف وثمة الخائن ثمة الأصيل وثمة الدخيل، وهناك أناس يقدمون تضحيات عظيمة لخدمة الإنسانية وربما تصل بهم القضية إلى أن يضحوا بأنفسهم، وهذا كله دينٌ في أعناقنا نحن المتنعمين ببطولاتهم وتضحياتهم، أفلا يستحق هؤلاء منا التضحية بأموالنا وأنفسنا في خدمتهم وخدمة سعيهم الشريف؟
- . . . بلى طبعاً
- طيب .. ومثلما أن هناك أشخاصاً طيبين علينا أن نعمل على الحفاظ عليهم والتضحية من أجلهم فإن ثمة أشخاصاً آخرين لا يستحقون هذه الحياة لأنهم ليسوا شرفاء ولا أتقياء ولا يعون قيمة الحياة التي يعيشونها، أفلا يستحق هؤلاء منا أن نخلص الحياة منهم ونطهر البلاد من أمثالهم؟

أدرك نذير مرمى الرجل لكنه في الوقت نفسه بدأت مخاوفه منه تتزايد، أجاب بحذر:

- طبعاً طبعاً

توقفت السيارة في مرآب للسيارات وسط المدينة، أطفأ الرجل المحرك والتفت إلى نذير قائلا:

- ممتاز هذا يعني أنك تفكر بشكل منطقي وسليم، اسمع سأختصر لك القضية وبلا مقدمات ثمةَ طبيب أخصائي بأمراض العقم يدعى الدكتور عصمت عبد الغفار شكري،

عيادته في شارع اليقظة عمارة النرجس الطابق الثاني، هل سبق أن رأيته أو سمعت باسمه؟

- لا لا إطلاقاً
- لا بأس صديقي، اعلم أن هذا الخائن هو أنموذج فاعل للفساد والدمار داخل المجتمع يعتاش على علل الفقراء والمساكين ويتاجر بأعراض الناس، ويتعدى على البسطاء الذين لا حول لهم ولا قوة، وكل هذا يمكن أن يحصل مع أي إنسان فاسد أو منحط لا تردعه نفسه عن اتباع الهوى وفعل المنكرات ولكن الذي لا يمكن السكوت عليه هو أن هذا الدكتور المفترض عميلٌ مدسوس في قلب مجتمعنا لجهات خارجية مغرضة لا تريد لهذه البلاد أن تزدهر أو أن تتطور.

تساءل نذير والدهشة بادية عليه:

- معقول ؟
- أجل هذا هو الواقع للأسف، ولا يجد هذا المجرم الخائن في مجتمعنا من هو أهل لإيقافه عند حده لذلك صال وجال وهو يخترق البلاد طولا وعرضا، أفلا يستحق هذا الخائن الإعدام جزاء بما يفعل وسيفعل؟

تعاطف نذير مع الرجل وأيده في كل ما يراه:

- بلى . . . بلى والله
- إذن فالقتل كفيل بأن ينجي الناس من شره ويطهر البلاد من أمثاله من الخونة والمندسين، لذلك فلنتعاون جميعنا لنحمي بلدنا منهم ومن أمثالهم، كلٌ منا يسهم فيما يمكن أن يسهم به أنا بالمال وأنت بالقوة وذاك بالمشورة وهذا بالتأييد، أملا في أن نخلص الناس من هذا الشر المقيت.

أحسّ نذير بالإثارة والاهتمام والخوف في آن واحد، تساءل:

- وما المطلوب مني بالتحديد؟

سعل بقوة ثم قال:

- مكافأتك خمسةُ ملايين دينار لقاء تخليصنا من هذا الخائن
- ولكن . . .

قاطعه الرجل مباشرةً كأنه يمنعه من الكلام، قال وقد بدت عليه آثار الغضب:

- تذكر جيدا حجم الدمار الذي يخلفه هذا الخائن في مجتمعنا، وكم ستنال من الأجل في هذه العملية هذا فضلاً عن مكافأتك المجزية

في هذه الأثناء أطل في مخياله البائس شريط العذاب الذي تجرعه خلال هذه السنين كم أذله الفقر وشتته العوز وأحرقته الأنفس ومجته الأسماع، لم يعد يتذوق طعما للأشياء سوى طعم الاختناق، والحسرة والمذلة، الاشتياق إلى السجن ورؤية صبحي ولؤي وعدنان، وذكريات قديمة لمحت في فكره المنهك، قال بعد أن سرح في غياهب الضياع:

- دعني أفكر قليلاً

زعق الرجل في وجهه:

- يا أخي القضية ما تحتاج إلى تفكير أنت تقدم خدمة جليلة تجاه أهلك ومجتمعك، اسمع سآتيك يوم غد الاثنين وفي جعبتي المكافأة والمسدس أريدك أن تقول لي موافق بعد أن تفتح لي الباب، اتفقنا؟
- اتفقنا

شعر بمتعة المغامرة لا سيما أنها تتم في تقديم خدمة للمجتمع أو على الأقل الانتقام من الظلم، في مساء اليوم الثاني دار حول نفسه داخل غرفته المهترأة ، تملكته روح الانتقام ولم يعد يأبه بشيء، مضت ساعات مسرعة دون أن تتكرك له فرصة التفكير، في مساء اليوم الثاني سمع صوت الباب انتفض وهرع إلى الشباك، دخلت أمه عليه بطبق العشاء الذي أحضرته الطفلة الصغيرة من بيت أبو زكي، ظل واقفا يدور في الغرفة كالمسعور حتى سمع صوت الباب ثانيةً خرج مسرعاً، فتح الباب فإذا بالرجل الأشيب واقفاً ويضع تحت إبطه كيسا ورقياً، استقبله بابتسامة مصطنعة حينها فقط شعر نذير بخطورة وجدية القضية، ظل واجماً للحظات وكأن الكلام استعصى عليه، كسر الرجل حاجز الصمت:

- مساء الخير نذير كيف الحال؟
- أهلا أهلا بخير كما ترى . .
- ها ؟ آمل أن تكون قد توصلت إلى قرار واضح وسليم

لمح نذير في عينيّ الرجل لغزاً عجياً لم يستطع التوصّل إليه، أدرك حينها أنه وضع نفسه في ورطةٍ كبيرة خشيَ أن يتملّص من الموضوع فيناله منه ما لا يتمناه، وافق على العرض وتمت الصفقة، مضى يومان وهو لا يزال يفكّر في مخرج أو حلٍ يخرجه من هذه الحيرة أو الورطة، في

يده اليمنى الآن خمسة ملايين دينار هو أحوج ما يكون إليها وفي يده اليسرى مسدس هو أحوج ما يكون إليه.

مضى أسبوع كامل ولا يزال نذير هائماً في متاهة العنف والإغراء الرجل ينتظر منه خبر القضاء على الخائن والحيرة تأكل قلبه، في ليلة الرابع والعشرين من آذار 2008 لم يذق طعماً للراحة أو للنوم، استدعى كل الأسئلة والأجوبة التي جمعها منذ أيام، منذُ أن اخترع لنفسه ذريعة تسمح له بالاستفسار عن "الخائن" ظلت المحاورة التي أجراها مع بواب العمارة عالقة في ذهنه، تردد قبل أن يبادر:

- السلام عليكم
- وعليكم السلام ورحمة الله

جلس إلى جانب البواب أمام العمارة:

- لو سمحت لديّ استفسار بسيط أريدك أن تساعدني فيه
- تفضل أنا في خدمتك

مشّط المكان بنظرة ارتياب:

- حبذا لو تكرمتَ بمساعدتي في التعرف على الدكتور عصمت عبد الغفار شكري، أريد أن أعرف عنه كل شيء

عقد البواب جبينه وطوّقه بنظرة شك، استدرك مطمئناً:

- القضية تتعلق بخِطبة ابنة أخي، أنت تعرف أنه من الضروري معرفة كل شيء عن الخاطب قبل الموافقة على الخطوبة، أليس كذلك؟

قهقه البوّاب حتى عمت ضحكته أرجاء المكان، قال بخبث:

- طبعا طبعا . . . ولكن هل قرر الدكتور عصمت أن يتزوج على الست مفيدة؟

ارتبك ولم يكن يحسب حساباً لهذه المداخلة، تدارك الأمر بسرعة قال وهو يفتعل الضحك:

- لا طبعاً . . . القضية تتعلق بابنه سجّاد
- أهاااا الأستاذ سجّاد . . .
- ولكن أريد أن يكون الأمر سرّاً بيننا، أنت تعرف المسألة عائلية ولا تحتمل التشهير

ثم دس في جيبه ورقتين خضراوين، سرعان ما أخرج البواب جزءاً يسيراً منها ألقى عليهما نظرة ثم دفعهما في جيبه، قال باندفاع:

- اسمع يا أخينا والله لو تحدثتُ لك عن الدكتور عصمت وكرمه ونبله وإنسانيته يوماً كاملا لما أوفيته حقه، ليت لي بنتاً أو أختاً وأنال شرف التقرّب إليهم، يا سيدي هؤلاء من أشراف المدينة، اذهب وقل لأخيك وابنته وافقوا بلا تردد أو سؤال، فهذه فرصة قد لا تتكرر في المستقبل

أدهشته إجابة البواب، شعر بالاختناق كأنه يعيش كابوساً مزعجاً ظل واجماً ينظر ما بين قدميه، أضاف البواب:

- لا شك، هذا الاستفسار ضروري ومهم ولكنه يصبح غير ذي جدوى إذا تعلق بالدكتور عصمت عبد الغفار

حاول أن يخفي صدمته بالموضوع تظاهر بالسعادة والسرور:

- وهل سجّاد ذو طبع كريمٍ كوالده أم أنه يشذُّ عنه قليلاً ؟
- في الواقع أنا لا أراه كثيراً ومعرفتي به لا تضاهي معرفتي بأبيه، ولكن على كل حال كان يأتي إلى العيادة بين حين وآخر وفي كل مرة ألتقيه وأسلم عليه يبدو شاباً ظريفاً حسن الخلق طيب المعشر كريم الطبع ليس فيه ما ينبئ بأنه سيشذُّ عن المسلك الذي سلكه أبوه

ومن بواب العمارة إلى البقّال في العمارة نفسها، فقد قال بحق الدكتور عصمت كلاماً أبهى وأعظم من الكلام الذي قاله البواب، والاستجواب نفسه يتكرر مع بعض الأطباء في المستشفى في كل مرة يغبطه الآخرون على هذا الشرف، ينظرون إليه بعين الاهتمام والاعتبار في حين أنه كان ينظر إلى نفسه بعين الازدراء والاحتقار، كلهم اتفقوا على أن الدكتور عصمت شخصية فذة وإنسان شريف ومعطاء داخل المجتمع الطبي وخارجه، لم تزده هذه الاستطلاعات إلا حيرةً وضياعاً، تذّكر الكلام الذي أملاه عليه الرجل الأشيب، أهكذا يكون الإنسان فاسداً؟ ! أهكذا يكون الإنسان خائناً، عن أي فساد وأية خيانة يتحدث؟ تداخلت الأشياء في بعضها وضاعت ملامح الأشياء، شعر بالضياع.

في تلك الليلة العصيبة ضمّ المكافأة إلى صدره، استنشقها قبلها تملكته روح الانتقام والعبث، تمنى لو أن الدكتور عصمت الآن ماثل أمامه لكي يفرغ المسدس في رأسه وينتهي من هذا العذاب، نظر إلى بطاقة الحجز تأملها جيداً دسها في جيبه، في الصباح ارتدى ملابسه وأخفى

المسدس والمكافأة جيدا بحيث يصعب على الآخرين ملاحظة أنه يحمل شيئاً، بعد نصف ساعة وصل إلى شارع اليقظة كان يمشي بخطى متثاقلة مربكة، تزجه قوى الشر نحو الأمام وتجذبه قوى الفضيلة إلى الوراء، عند باب العمارة لمحه البواب فحياه بابتسامة لطيفة دون أن ينبس بحرف، دخل غرفة الانتظار سلم البطاقة للسكرتير كان شاحب الوجه لا يكاد يميز وجهه عن وجوه المرضى والمراجعين شعر بالغثيان والتعب لكنه تمالك نفسه، تحسس المسدس والمكافأة بحركة خفية انتظر نصف ساعة قبل أن يقرأ السكرتير اسمه ويطلب منه الدخول إلى عيادة الدكتور، نقر على الباب ثلاث نقرات خفيفة ثم دخل مباشرةً أغلق الباب والتقت عينه بعين الدكتور، لم يكن يتوقع أن تصل به لعبة الصدف هذا الموصل، تجمّدت أطرافه ولم يتمكن من الكلام، أحسّ الدكتور بتأزم حاله، بادر بحب:

- تفضّل نذير تفضّل . .

نعم إنه الدكتور عصمت عبد الغفار شكري عرفه من نبرة صوته ومن ملامحه واسمه الذي ألفه الآن، الطبيب الذي قام بختانه مع عشرين طفلاً من أطفال المحلة قبل نحو سبعة عشر سنة، في ذلك العرس الشعبي الكبير، نعم إنه الدكتور عصمت الدؤوب المرح الذي لم تعرف المحلة طبيباً يحمل أخلاقا حميدة مثله، قال مستفهماً بعد أن سلخ نفسه من متاهة الدهشة:

- الدكتور عصمت عبد الغفار . . ؟

رفع الدكتور رأسه مستغرباً نوعية السؤال:

- نعم أنا الدكتور عصمت، تفضل لم أنت واقف هناك

تقدم خطوات إلى الأمام وجلس أمام الدكتور:

- دكتور هل تعرفني؟ هل سبق وأن رأيتني؟
- المعذرة حبيبي نذير أنت تعرف أن ذاكرتنا مخترقة على الدوام وألتقي يومياً بعشرات المراجعين، وأنا كبرت ولا أستطيع أن أتذكر كلَّ من يأتيني
- أنا نذير محمد علي من محلة الربعة حي النضال شرقي المدينة، أتذكر جيداً قدومك إلينا منذ حوالي سبعة عشر سنة عندما تم ختاننا على يديك أنا وجمهرة من أطفال المحلة، ألا تذكر . . ؟

ضحك الدكتور ضحكة خفيفة قال بعفوية:

- بلى كيف لا أذكر، أظن أن تلك المناسبة جرت في بيت الأستاذ محمد رفعت أليس كذلك؟
- بلى وهو خالي الذي وافاه الأجل قبل نحو عام، عندما انفجرت عبوة كانت مزروعة عند حافة الشارع، أردته قتيلا وهو في طريقه لأداء صلاة المغرب

أبدا الدكتور تأسفه وامتعاضه لم سمع، قدّم تعازيه لنذير طالبا منه المعذرة لأنه لم يسمع بالموضوع من قبل، قبل نذير التعازي وساد جو من الكآبة، أطرق نذير وشعر باليأس ثم بادر الدكتور كأنه يريد إنهاء الوقفة التعريفية:

- نعم نذير مما تشكو؟ ما سبب الزيارة؟

صحا نذير من الحوار المخدر المثالي بينه وبين الدكتور عصمت، قال وهو يكتم ارتباكه:

- حقيقة دكتور أنا لا أشكو من شيء وصحتي جيدة جداً والحمد لله

نظر الدكتور إلى نذير نظرة تساؤل وتحرٍ تحسس من وجوده وبدأ يشعر بالإرباك، مدّ نذير يده إلى جيبه وأخرج المكافأة واضعاً إياها على الطاولة، فضاعف الحيرة التي انتابت الدكتور من قبل، تساءل الدكتور بحذر:

- ما هذا . . ؟

تجاهله نذير وكأنه لم يسمع سؤاله، مدّ يده ثانية وأخرج المسدس ووضعه على الطاولة، دهش الدكتور وأحسّ بالرعب تسمّر في مكانه ثم هبّ واقفاً وبدت عليه ملامح الغضب، قال بامتعاض:

- ما هذا . . ؟ تكلّم . .
- اجلس دكتور أرجوك اجلس ولا تخف

جلس الدكتور وهو يلتقط أنفاسه بانفعال، لم يستطع كتم مخاوفه، قال نذير بعد أن تملكته روح الثقة:

- أما هذا المسدس فهو المسدس الذي كُلِّفتُ بقتلك به، وأما هذه النقود فهي مكافأتي على تنفيذ العملية

اصفر وجه الدكتور وخارت قواه، لم ينبس بحرف، تجمدتْ أطرافه وابيضت عيناه، أضاف نذير مطمئناً:

- مضت أيامٌ وليالٍ وأنا أستفسر وأسأل عنك في المستشفى وهنا وفي الشارع وفي المنطقة، تمنيت لو يخرج لي إنسان واحد ويذمك في وجهي، كل الناس أشادوا بك وبخلقك وبكرمك ونبلك، وعندما رأيتك الآن وعرفتك تأكدت بأنهم لم يقولوا فيك إلى ما تستحق، لذلك أن عدلتُ عن الفكرة الجهنمية وقررت أن أضع يدي في يدك لمساعدتك في إلقاء القبض على الرجل الذي لوّث عقلي بفكره الخرب وأراد أن يقضي على حياتي وحياتك بمكافأته هذه.

تنفس الدكتور الصعداء . . وقال بعد أن عادت روحه إليه من جديد:

- غير معقول لا أكاد أصدق
- صدقني يا دكتور هذا ما حدث، والرجل الآن ينتظرني في المقهى الشيوخ بمحلة الربعة، فمن المفترض أن أعود إليه ومعي خبرك . !
- يا لطيف يا ستّار . . ما اسمه وما شكله وكم عمره؟ هل تعرفه ؟
- لا أعرف عنه شيئاً إطلاقاً سوى أنه رجل أشيبٌ ضعيف البنية لديه سيارة فارهة، ومزاجه حادٌ جدا كثير الغضب، في كثير من الأحيان كنت أشعر بأنه مجنون، ولهذه اللحظة لم أعرف كيف توصّل إلي، ربما كان يقصد شخصاً آخر أو أنه يقصدني فعلا في تنفيذ ما يريد . . لا أدري لا أدري

أطرق الدكتور وبدا مهموماً كئيباً، قال بعدم اكتراث:

- هل أنت متأكد من أنه موجود الآن في المقهى ؟
- نعم دكتور، أرجو أن نسرع في اتخاذ اللازم قبل فوات الأوان
- نعم الرأي

رفع الدكتور سماعة السكرتير وأخبره بأنه غير قادر على إتمام عمله اليوم ، اعتذر للمراجعين وخرج مع نذير مسرعاً، ودعهما البواب بابتسامة لطيفة، اتجه الدكتور بسيارته إلى مركز الشرطة، فأخبرا الضابط بما حدث وأعطياه المسدس والمكافأة، اصطحبتهما قوة إلقاء القبض، بعد الوصول إلى المكان تم تطويق المقهى مباشرةً وشاهد نذير الرجل الأشيب يجلس في المقاعد الأخيرة أشار إليه فهرع رجال الشرطة فألقوا القبض عليه، تم اقتياده إلى عربة الحبس، وقعت عينه على الدكتور عصمت ونذير الذين ظلا واقفين عند باب المقهى، وما أن رآهما حتى جن جنونه، وأخذ يصرخ ويسب ويشتم ويتلفظ بكلمات نابية بذيئة، بحق الدكتور عصمت ونذير، أقعدوه في السيارة ولا يزال يصرخ:

- يا عصمت الخائن أيها الجبان سأقتلك ستموت على يدي في المرة القادمة

غابت السيارة بين البيوت والعمارات، أحسّ الدكتور برغبة في البكاء انزلقت على خده دمعة دافئة، تساءل نذير:

- هل تعرفه دكتور؟

نظر الدكتور عصمت في الطريق الذي ابتلع السيارة:

- رجل ثريٌ توفيت زوجتُه أثناء العملية، وحملنا مسؤولية وفاتها، وهذه المحاولة الثالثة لاغتيالي يخطط لها هذا الرجل . . !

شحب وجه نذير شعر بالغثيان والدوار، حاول أن يقول شيئاً لكنه فضّل السكوت.

2013 / 4 / 6

أغْرقُها بيأسي

استيقظ من أفكاره البائسة التي تصدع رأسه كل يوم، فما فائدتها وما جدواها إن لم تستطع تأمين سبيلٍ واحدٍ يوصله إلى الناس، صمتٌ مريبٌ وترنيمات غريبة، وأحاديث لا تصل إلى أدنى درجات الوعي، هو أدرك بعد مرور عدد من السنين أن أكثر البشر شقاءً عليه هم الذين يفهمونه وينكرونه، أما الذين لا يفهمونه فقد أضحى مؤملاً بالوصول إليهم بطريقةٍ أو بأخرى، عيٌّ فضيعٌ وعسرةٌ خانقة، تذكّر ملايين الكلمات التي شنقها اللسان وعلقها في سقف الحلق وهي الآن سجينةً بين جدران أربع قُتلتْ بتهمةٍ تتعلقُ بالنية، هي نفسها الأصوات التي تتكرر، شيءٌ ما يشبه صوت الأشياء التي تربطها علاقة عشق أبدي بالمكان فتئن عندما تتعرض لقوة خارجية تحاول إبعادها عنه، تراءت له أمه من بعيد وتتبعها أصوات عديدة، كان فمها يتلاعب بالكلمات وتتشقلب الحروف فيه، وقفت أمامه ولا يزال وجهها يطفح بالغيظ والامتعاض والضجر، أمسكت بيده وسحبته بقوة وراءها، ترنح قليلاً قبل أن يعتدل، أجلسته على البلاط ووضعت أمامه إناءً من العدس البارد، وقطعة خبز، فهم بعد حين أنها كانت تريد دعوته إلى الغداء.

لم يكن يدرك حقيقة واقعه، إذ غالباً ما كان يجد نفسه آخر من يعلم ما يدور حوله، والعجز يسيطر على قلبه ولسانه، وليس بمقدوره الولوج إلى بريق الحياة وريعانها، الكلمات في صدره حزم من المجردات المتمردة، هي تحاول كل يوم بل كل ساعة وكل دقيقة أن تقتحم جهازه النطقي، هي تحاول لكنها تفشل فشلا ذريعاً، فلم يكن أمامه إلى زاوية ضيقة يرى من خلالها العالم بعيون مكلومة، فليس الحياة في نظره سوى غابة من الوحوش التي تتنافس على الفرائس، الدم . . صوت الدم هو الأعلى ولا صوتَ يعلو عليه، كان يحب الاقتراب من الناس، رغم تلك الذبذبات المزعجة غير مفهومة التي تصحبه.

ذات يومٍ ربيعي جميل، خرج من البيت أملاً في إيجاد من يفهمه أو يفك له شفرة تلك الذبذبات، أو يوقفها، جلس في الحديقة العامة، لكنه جلس بحذر شديد، كان يراقب الناس وهم يتحاورون ويضحكون، لكنه ظل يراقب شخصين يجلسان بالقرب منه، كان يراقبهما بعناية كانا يضحكان بصوت مرتفع، لكن هذا الصوت كان يزعجه كثيراً فذبذباتهما مزعجة ومشوقة في

الوقت نفسه، أحسَّ برغبةٍ عارمة بالمشاركة بالتفاعل بالدخول إلى دفئ حديثهما، أراد أن يجسد صورةً بهيةً أمامهما فكّر بالعتبة التي تدخله إليهما، أدرك أنه لا يستطيع التعبير عن السلام أو التحية، كم تمنى لو أن الحياة كلها تسير وفق نياتنا لتقضى حاجاتنا بشفافية نياتنا، لأحب الآخرين فيعرفون بأني أحبهم، وأبغض البعض فيعرفون بأني لا أحبهم دون الحاجة إلى النفاق والتملق! تُرى كم سيكون العالم مدهشاً ونقياً لو صرنا محكومين لنياتنا، عندها ستتضح الأمور وتبدو وكأنها أحلام شفافة يخترقها النظر، وقف أمامهما وحاول أن يكشف لهما وده ورغبته بالصداقة، ظل واجماً للحظات دون أن ينبس بحرف، كانا ينظران إليه باستغراب مفرط، حسباه مجنوناً، فسرعان ما تحولت تلك الابتسامة الجميلة على محياهما إلى مظهر غضب عارم، فكّ أحدهما فاه بوجهه فصعقه بذبذباته الخانقة، ولم يكتفِ بذلك بل إنه وضع يده في صدره ودفعه إلى الوراء، كانت هذه النهاية متوقعة بالنسبة إليه لكنه استبشر خيراً عندما رآهما يبتسمان، ليعود إلى المشكلة ذاتها التي لا تجعله يتوقع نتائج أفضل في الظروف نفسها.

ترتبط مآسيه بعضها ببعض، ونكساته تذكره بنفسها دوماً، ولا سبيل لخروج كلماته من صومعتها الأبدية، هو يأثر على نفسه أن يتحمل أسى الناس وحماقاتهم على أن يبقى وحيداً، فأغلب وقت مشحون بالوحدة فلا يجد من يأنس به، الوحدة بالنسبة إليه عذابات ممتدة وموت بطيء يقتص من روحه باندفاع فضيع، لم يزل يحاول أن يجد لنفسه مخرجاً من مأزقه هذا، والحلول كلها تتعلق بالكلمة، والكلمة معلقةٌ مشنوقة بلسانٍ معقود، ليظل رهين معاناة وذبذبات لا يجني منها سوى القلق والحيرة والضياع.

تطلّع من شرفته المطلة على شارع الطليعة الذي يمتد بين أعمدة البنايات والشقق المأهولة بالسكان، كانت الأسواق مكتظة بالناس، كأنهم خلية نحل، تبدو الصورة واضحةً وشاملةً وبهية، كان يستمتع كثيراً بالأجواء التي تنتعش تحته، كل شيء جميل ورائع، لكن شيئاً ما أفسد عليه بهجته، إنها الأصوات المشبوهة مرةً أخرى، ظل رغم تلك الذبذبات اللعينة يراقب الناس بود حميم، يراقبهم بكل هواجسه، كان بين الحين والآخر يضع يديه على أذنيه محاولاً تخفيف شيئاً من ذلك الزعيق المزعج الذي يصبه الواقع في رأسه دون أن يفهم منه شيئاً.

تقلبت في رأسه أفكارٌ عديدة أكثرها حماسةً أبلغها يأساً، ظل يدور في حلقةٍ مفرغةٍ من العذاب، كأن روحه محبوسةٌ بين أربعة جدران ولا يمكنه النزوح للآخر، في الجهة المقابلة له من

الشارع، كانت البنايات متوازيةً متناغمة، تراءى له شبح فتاة، كانت عيناه تتربصان ببطء، ظل واجماً للحظات، يحاول أن يتبين الأمر، بدت الرؤية أوضح وأبهى، التقت عينه بعينها، ارتبك كثيراً ولم يعد يعرف ما الذي يصنع، غابت عنه تلك الأصوات الموحشة التي كانت تزعجه قبل لحظات، بدت كموسيقا عذبة يعشقها من بعيد، تساءل في سره ما هو السر وراء هذا التغير في طعم العالم بهذه السرعة الفائقة، بعد لحظات صدمَ كثيراً عندما رآها تشير إليه بيدها من بعيد، كأنها تستقبل عزيزاً وتحاول أن تصل إليه بلهفة، أكبر له أنها أحست بوجوده بلا قيود بلا ثمن، تشجّع كثيراً للتفاعل معها، أخذ يرد التحيةَ، وكأنهما في طريق اللقاء، توقفت للحظةٍ وهي تطالعه باستغراب، كأنها تعرضت للتحرش، بعد لحظات فتحت باب الشرفة وأخذت تنظف النافذة من الخارج فأصبح السلام معكوساً، بدأ ينظر حوله والخجل يلف عينيه، سحب يده التي كانت تسبح في الهواء رويداً رويداً، وخبأها في جيبه، ودخل إلى غرفته مسرعاً، كان يراقبها بخفيةٍ دون أن تراه، أحسَّ بإحساس غريب، لكنه شعر بأن شيئاً ما تغير بداخله.

في اليوم التالي أطال الوقوف على الشرفة لكن دون جدوى، ظل يراقب المكان بعينين تائهتين، مرت ثلاثة أيام، على تلك الحادثة البنفسجية، ومع ازدياد حالته سوءاً تزداد تشويقاً، وفي مساء عصريٍ بهيج احتضنتها الشرفةُ من جديد، رأته مبهوتاً يطالعها بفضول واشتياق، كأنه كان يعاتبها على طول الفراق، وكأنها كانت تبرر له غيابها بمكر نسائي عظيم، التقت عينه بعينها ثانيةً، حاول أن يجسد لها ما يشعر به لكنه نسي أنه بلا أجنحة، بلا هواء طلق يسمح له بالمرور والعبور حيث يريد، مرت اللحظات بسرعة باهظة، ظلت تنظر إليه بفضول وعبث، كأنها تستفهم عن شيء مجهول، طال انتظارها وطال انتظاره أكثر، كانت النظرات تلتحم تشتبك تتعاضد لكنها تضيع في هواء الأمنيات، فتسقط بين أقدام المارّة، بدأت اللحظات تبرد مع ارتفاع حرارة الجو، فلم يكن هناك ما يجعله يبتسم، أحس بتأزم الموقف، فلم يكن أمامه سوى الهروب إلى صومعته القديمة، كأنه نعامة تدفن رأسها في تراب الخيبة.

تصدعت نفسه كثيراً، فلم يعد يحتمل هذه التراكمات العاطفية الحادة، كان يؤمن بضرورة التغيير وضرورة الأمل، وعندما أحس بأن القدر يلوح له بشيء ما ابتهج وانتفضت روحه، لم يناقش مع أحد ما مشكلته التي صدعت رأسه منذ أن ولد، كان يكبر وتكبر معه همومه، ولم يجد أحداً يقف عنده ويتأمل حاله، أمه التي أيدته بحبها عندما كان صغيراً، طفلاً مدللاً تحيطه

بحنانها وعطفها، ومع تراكم الأيام بدأت تتضح ملامحه الأبدية مع اتضاح صور الشقاء الذي كان ينمو في وجدانه، لكن القدر خصّ له جملة من المواقف الصادمة التي لا يستطيع أن ينساها أو أن يحذف جزءاً منها، ارتبطت صورة أمه في مخياله بذلك المشهد المتكرر الذي لازمها ولازمه لمدة عشرين عاماً، هو ابنها الوحيد الذي تسكن معه في شقة بسيطة في إحدى العمارات القديمة وسط المدينة، يعتاشان على راتبٍ بسيط من شبكة الرعاية الاجتماعية، فالأب كان ضحيةً من ضحايا الحرب، فكّر بالأصدقاء كثيراً لكنه لم يكن يستطيع التأقلم معهم، كانوا يزدرونه ويحتقرونه إلى الدرجة التي يحس بها بالخوف.

الليل موحش ومخيف، ودقائقه ثقيلة ومترعة بالوهن والعذاب، ما أقسى تلك النظرات المشبعة بالتصدع، كانت أمه تطالعه بألم كبير، لقد ملّ ذلك الترقب المخيف، تلك اللعبة المتعبة المملة التي فرضت عليه فرضاً، كانت أمه تمنعه من الخروج ليلاً، فلم يكن أمامه سوى الدومينو يهندس العمارات ويعلي البنيان لكنه سرعان ما يداهمها بالهدم والخراب، لم تمل أمه من ذلك النحيب المخيف الذي كان يصدر عنها في مقدمة الليل كانت تجلس قبالته تطالعه بنظرات مليئة بالخوف واليأس والعذاب، يشتد نحيبها أحياناً، لعلها تذكرت أمراً ما، ولكن هل كان واقعها أقل بؤساً من ماضيها، كان يتحاشى النظر إليها ظل يسترق النظر بين لحظةٍ وأخرى، ظلت نظراتها الخانقة تشعره بالذنب والبؤس، أمه عالمه الأوحد رغم قساوتها وعنادها له، عرفها مزاجية جداً فاعتاد على عدم إثارة غضبها، كان يحبها رغم قساوتها رغم ذبذباتها المزعجة، وليس ذلك اليوم الرهيب إلا شاهد على جفائها وحنقها عليه، أكدت عليه مراراً وشمرت بسبابتها وحذرته من العبث في البيت أو محاولة الخروج إلى خارج الجدران الأربع، مرت ساعات رتيبة وجد نفسه مضطراً للنوم، حاول أن ينام لكنه لم يستطع، تلون قلبه باليأس والخيبة، بعد لحظات قادته خطواته الثقيلة إلى التنقل داخل البيت ولمح خيالاً من وراء الباب، كانت أمه تضرب الباب بقوة بعد أن نسيت المفتاح في الداخل، ركض نحو الباب ليفتحه وبعد أن فتح الباب هجمت عليه أمه وأخذت تطوح به يمنى ويسرى وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً، لم يكن يستطيع الدفاع عن نفسه كان مستسلماً لها، يائساً جداً، غير قادر على التعبير عن حقه في الكلام، كانت تضربه بقوة وتزامن ذلك بالبكاء والعويل، بعد لحظات تركته ثم سقطت على الأرض تجهش في البكاء، وقف عن حافة الغرفة ينظر إليها بتودد ورحمة، لم تتوقف عن النحيب، اقترب منها وهو يعدل ملابسه الكثة،

أخذ يقبل يدها ويحاول أن يحتمي بها، احتضنته بكلتا ذراعيها وكأنها تعتذر له عما بدر منها. لم يكن الحبُّ إلا نفحة فريدة تملكت قلبه في لحظة من لحظات العمر، كانت الحشرجات المؤلمة التي تخدش هدوء صدره نائمة، ظل يتحسس طيفها، يتعقب بهاءها المنتظر، فكّر ملياً بالأمان الذي يتحسسه عندما يتلمس ذكرها بذلك العبق الأخّاذ الذي يقتلعه من جذوره البائسة، إنه سحر الأغنية وصدى الهيام الذي يرتل على مسامعه أناشيد الخلود، مرت الأيام على عجل وهو لا يزال عند حافة الصمت ينتظر ما لن يعود أبداً، ينتظر لأنه لا يستطيع أن يتقن شيئاً آخر غير الانتظار، وما أقساه في وقت تشتهي فيه الطيران وأنت بلا أجنحة ولا فضاء.

تيقنت من أنه لن يباغتها بعطفه وحنانه كانت تعرف أنه مكبل بالألم، محاط بأقسى أشكال الخيبة، فبادرت بمعاينة موقفه بنفسها وها هي اليوم تترقبه، تتتبع همساته الغريبة بين الحين والحين، بدأت تحس بطعم اجتياحه وانتزاعه لها من عالمها المأهول بالوحشة، وبين الفينة والأخرى تقودها ظنون غريبة كأنها تحيلها إلى مصيرها المعقود بأزمة اختناقها، ولا أملَ في الأفق إلا بما جدّ من صور الحياة الجديدة بحلوها ومرها باعتيادها وانفرادها، كانت تحس بالذنب حقاً، تتحسس انبلاجه في وجه الظلام، ظلت تنتظره لساعة كاملة قبل أن يطل عليها بوجهه البشوش، لكن سرعان ما طوقتها هالة من الاعتداد بالذات فتركته يرسم أمانيه على الهواء الطلق، كانت تلبس عليه انتشارها فيه فلا أحد يمكنه أن يميز اندفاعها نحوه في اللحظة التي تحاول أن تتمرد عليه، ظل يباغتها باندفاعه نحوها وكأنه يريد أن يقلص فجوة الشارع ليطير ويحط في باحة الشقة التي تحتضنها.

لم يكن ذا خبرة كبيرةٍ في عالم الغرام والمحبة، هو يعاين تجربة جديدة على حياته لذلك فهو يعمد إلى ما يمليه عليه ضميره فقط في التصرف والمعالجة، فلا صديق ولا صاحب ولا أخ يمكن أن يستفيد منه ما يؤمن خروجه من دوامة المحبة، كان بأمس الحاجة إلى شخص يكرر له تفسير حركة يدها وهي تشير له بكفها مع انفراج اصابعها، ثم أنزلت يدها وأشارت إلى الأسفل، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحسس طعم الحب بمذاقه الأصيل، يتساءل في كل لحظة عن اقترانه بإنسانة تقرأ وجهه وتطير في سماء قلبه، تحاصره من جميع اتجاهاته، وتستلهمه في قنوات اختزاله للعالم، بقي ينظر إلى ساعته يتابع تقدمها إلى الخامسة، كان يستشرف تلك

الخطوات الخجولة، ملأ ساعة انتظاره بالأمل كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف، بدأ النعاس يزحف على عينيه، داهمته إغفاءة مفاجئة، غرّد في حدائق الأمنيات.

غطت عينيه بكفيها واقفةً خلفه تتناهى من قلبها ابتسامات وضحكات ناعمة، مرر يده من فوق يدها كأنه يحاول أن يطيل من عمر اللحظة، ثم قطف كفها من فوق عينيه وأخذ يقبله بنعومة وتأنٍ، قال لها بنبرة دافئة وهي لا تزال خلف ظهره:

- لم أكن أعلم أن يديك لا يحجبان الرؤية

تظاهرت بعدم الفهم:

- وكيف ذا؟
- ضعي يدك فوق عينك فإن فتحت عينك سترين العالم بشكل أجمل
- ما أبهاك وما أروعك

قادها إليه من وراء المقعد، أجلسها إلى جانبه، قبّل يدها، وأشعرها بعطفه وأمانه:

- من الذي علمكِ ضبط المواعيد؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم أجابته بعمق:

- المواعيد مثل الزهور والورود الطبيعية التي تقطف للتو، فإن أهديتها وهي في ريعانها كنت بارا بجمالها، وإذا تأخرت عنها ذبلت وذهب جمالها

هزّ رأسه معجباً:

- يا سلام، ومن علمك هذه الفلسفة؟
- تعلمتها منك

ترك عينيها ومدّ بصره إلى الأمام تنهد بعمق كأنه أراد أن يزيح هما كابسا على صدره، كان يستشعر فرادة المكان، حيث الحديقة العامة المحاطة بالزهور والأشجار والنافورات، قال بعد مسحة من التأمل في وجهها

- ومن الذي علمك أنني سأهديك وردة؟

ضحكت بدلال وسيطرة:

- كيف لا والورد كله يجلس معي

قدّم لها وردة حمراء، كأنه يريد أن يثبت لها أن لغة الورود أسمى من لغة اللسان، وأن العالم كله يمكن اختزاله بوردة يهديها شخص ما إلى أحد أحبائه.

- أُحبكِ . . .

تابع تدفق الدم إلى وجهها فقد احمرت وجنتاها خجلا، حاولت أن تبدد خجلها بالعبث بطرف فستانها وكأنها طفلة صغيرة، لكنها سرعان ما أجابته:

- وأنا أيضاً . .

بدأ جبينه يتفصد عرقاً وهو يحاول أن يطوق المكان بحنانه وانشراحه، رأته يتلعثم في كلماته، لا يقوى على مجاراة عينيها، فبادرت:

- هل أنت بخير؟

شعر بالإحراج من سؤالها وأراد أن يعيد نفسه إلى توازنها:

- نعم أنا بخير ما دمتُ بمعيتك

لكنها رمقته بنظرة ماكرة وتناولت حقيبتها وأخرجت قنينة ماء بارد، فتحتها بهدوء ثم قربتها من شفتيه، بدأ يشرب ببطء وقبل أن ينتهي ضغطت على القنينة بقوة ليتدفق الماء البارد بقوة نحو وجهه، وجد أمه فوقه وفي يده دلو فارغ من الماء أفرغته فوق رأسه، حملق بالمكان بيأس كبير تذّكر حلمه الدافئ رغم قطرات الماء الباردة، ابتسم بهدوء وأغمض عينيه وكأنه يرغب في استكمال بقايا الحلم، بعد لحظة صمت انتفض كالعصفور المبلل متذكرا موعده، نظر إلى ساعته فإذا هي تشير إلى السادسة والنص، لم يصدق أن إغفاءته قد امتدت لساعتين، شعر باليأس والخيبة، ذهب إلى الشرفة ليرى ما إذا كان في الأمر ما يمكن استدراكه، كانت النوافذ موصدة والظلام يلف المكان، ولا معنى لزهرةٍ أو وردة ذبلت بانتظار موعد أكثر دقة.

2018 / 8 / 15

الخُروجُ من الذّاكرة

فكّر كثيراً قبل أنْ يقدمَ على اتخاذِ ذلك القرار، لكنه في نهاية الأمر عزم وتوكّل، بسط حقيبته على الأرض دار ببصره داخل حجرته البائسة كأنه يدخلها للمرة الأولى، جدرانها التي رقص فوقها الشقاء وظلت تعاني من القشور والتصدعات، صورُ العظماء التي تآكلت تحت زحف الرطوبة، أريكتُه الحديدية البسيطة المقابلة لباب الخروج، دس في حقيبته بعض ملابسه وقارورة عطر ومشط ونصف مرآة، ثم زمّ الحقيبة لكنه ما لبثَ أن بسطها ثانية فتح الدرج الذي على يمينه وتناول ديواني شعر الأول لشاعره المفضل إبراهيم ناجي والثاني لأحد أقربائه ثم أخذ يتصفح سجلا خاصا كتب على غلافه الخارجي بخط جميل "مذكراتي" اعتاد منذ زمن بعيد أن يدوّن فيه أبرز مذكرات الأحداث التي يعيشها أو يعيش عليها، علّق الحقيبة على كتفه الأيمن وشرع يمشط الحجرة بنظرة وداعية كئيبة.

هناك في حيّ شعبي على أطراف مدينة بغداد يقيم بلال وحيداً في حجرة بائسة بعد ذلك الرحيل الجماعي الذي فقد فيه عائلته كلها أثناء القصف الذي طال منزلهم الواقع على مقربة من ثكنة عسكرية للجيش على أطراف المدينة، يعمل بلال في مصنع للأدوية الأولية موظفاً بسيطاً بمرتب أبسط، كانت حادثة الرحيل تلك نقطة تحول في حياته الخاصة، في تلك الليلة المظلمة كان لا يزال في المصنع قبل الساعة العاشرة ناب عنه رفيقه سعد في العمل ليتسنى له الذهاب إلى البيت، لكن العويل المحزن انطلق في الأرجاء كلها ودوت صفّارة الإنذار، لم يكن بلال ممن يقيم لذلك العويل ما يلزم فلا تبدو عليه ملامح الخوف أو التحفظ، قال لسعد وهو يهم بالخروج:

- سأذهب إلى البيت لا أريد أن أضيّع ليلتي هذه بين صراخ الأجهزة.

قال سعد وهو يشيعه باستخفاف:

- وهل تظن بأنك ناجٍ من صراخ المدينة؟ الحرب والرعب قوانين تنظم جزءا مهماً من حياتنا
- صراخ المدينة...؟ ، أصدقك القول لم أعد أخشى شيئا.

شيعه سعد بنظرة إنكار وهو يغرق في العتمة بينما تتسابق النجوم في الأفق والرصاص ينتشر في كل مكان، لم ينفقِ الكثير من الوقت قبل أن يصل المحلة، هالهُ الأمر لم يستطع أن يصدق ما يراه للوهلة الأولى، رأى وهو لا يزال يجرجر خطاه المتثاقلة نخلته الباسقة وهي تصارع تنيناً من اللهب المروّع، أعمدة الدخان تسافر نحو الأفق فوق بيته الراضخ لهول ما حل به، توقف فجأة لم يتمكن من مواصلة المغامرة، رَقِبَ جمهرةً من الأشباح عند باحة البيت تعكس وجوههم المذهولة شراسة النار والاحتراق يتجمهرون حول شيء ما، صاح أحدهم وهو يلتفت إلى

الخلف "بلال" فأفسحوا له المجال بعد لحظات كشفوا له عن أربع جثث سابحة في نومٍ أبدي، الأب والأم والأختين الصغيرتين قضوا جميعاً اختناقاً، عندما حاصرتهم النار قبل أن يتمكن الجيران من انتشالهم جثثاً هامدة، جَثَا على ركبتيه حاول جاهداً أن يصدق ما حدث لكنه اعتقد جازماً في نفسه أن ما يراه إنما هو كابوس يفسد عليه نومه الهادئ، لم تسعفه الدموع ظل واجماً لم يحرك ساكنا كأنه يحملق في فراغ، بادر أحد الحاضرين الذين تحنّطوا بالصمت والخشوع أمام جلال الموقف وحاول أن ينتشله من صومعته الباهرة لكنه انكمش حول نفسه وأجهش في بكاء مر ، بكاء يرتل أحرف الموت والعذاب، بكاء أقرب ما يكون إلى قهقهة الناي وتنهّد العود، رحل عنه الجميع تحول كل شيء إلى رماد شاحب الأهل البيت النخلة العظيمة لم ينجُ من هول الفاجعة سوى رحيق الذكريات الميتة التي كان قد دونها قبل الحادثة في سجل مذكراته الذي عثر عليه داخل صندوق معدني، ربما كان وراء نجاة ذلك السجل العتيق حكمة ما، فقد تلوح في الأفق ذكريات جديدة جديرة بالاحتفاظ والتحنيط.

وصل المحطة قبل الموعد بنصف ساعة، نظر إلى الوجوه فرآها مكبلة بالأسئلة التي ليس لها أجوبة، تُرى هل يبحث هؤلاء الناس المزدحمون في المحطة عن ذواتهم المفقودة أيضا؟ هل يمكن أن يكون هذا الذعر الذي يعايشونه قبل السفر وبعده علامة قارّة تكشف عن خباياهم المدفونة في ظهور الأدمغة؟ جلس في باحة الانتظار استل السجل كَتَبَ:

(م 9127): "عندما لا أجد أحداً يكون بانتظاري فإن من الواجب عليّ انتظار أحدٍ ما، فإن طال ذلك الانتظار يكون الرحيل حينئذٍ أمراً حتمياً، اليوم أترك بغداد دون أن أضع في حسباني أنني عاق لقمرها و شمسها"

بلال فوزي

محطة القطار / بغداد

2 / 8 / 1992

تسلق الوجوم إلى وجهه الشاحب عندما شملَ المذكرة السابقة بنظرة خاطفة:

(م 9126): على أيةِ حال ... علينا أن نكون دوماً على درجة عالية من الحذر، فلا ينبغي أن ندمن شيئاً حتى وإن كان ذلك الشيء أمراً حسناً، ليس ثمة داء أضر علينا من الإدمان، فكل إدمان مقرون بانتهاء حلمٍ وصورة شهيد.

بلال فوزي

حجرتي / بغداد

27 / 7 / 1992

أعاد السجل إلى الحقيبة دون أن يعيد ذكرياتِهِ الأليمة كاد أن يبيع آخر دمعة في تلك اللحظة لكن القطار زمجر آذاناً بالتهيؤ للانطلاق، احتشد المهاجرون وتدافعوا إلى فوهة العربة ، اتخذ مكانه بالقرب من النافذة وضع الحقيبة بين قدميه وتكوّر حول نفسه يهم بالانتظار لحين دخول جميع المسافرين، لم يغب عنه ذلك المشهد المروع صور الجثث الصامتة احتراق النخلة ، وأخيراً رسمها الأبدي المنقوش بحبر الدم وعنفوان الروح على صفحات قلب طاعنٍ بالحب، سيغادر المكان علّه يقوى على مغادرة ذاته التي ما انفكت تصنع منه محوراً مشوقاً لليأس، بعد لحظات قرأ رجل أنيق وسيم عليه التحية استأذنه ثم جلس إلى جانبه كان رجلا مزدان بلباس رسمي فاخر يعلق في يده اليمنى حقيبة صغيرة، لم يستطع بلال أن يربط ما بين أناقة جليسه والجحيم الذي يصطلي الركاب في القطار، فلم يستسغ ركوب غير البسطاء في القطار.

تهادى القطار ببطء لكنه ما لبث أن زاد من سرعته في حثيث متواصل، لكن بلال ظل يسلي نفسه بذلك الوابل المتدفق من الذكريات الذي تضاءل حتى انقطع عندما تابع بلال شلال الصور عبر النافذة التي بجواره تتابعت أشجار النخيل المتلاحقة البساتين الفتية الجداول التي لا تزال تحتفظ ببكارتِها، استبشر للمشهد الجديد فتحرر نسبياً من إخطبوط الوجوم الذي خيّم عليه عندما كان في المحطة ينتظر إقلاع القطار، شعر بنشوة مفاجِئة استهوته تلك المناظر الجميلة ربما لأنه لم يكد يرى مثلها من قبل فهو أضاء وانطفأ في بغداد ولم يتسنَ له الخروج منها إلا اليوم، داهمه استرخاء مفاجئ ما لبث أن تحول إلى نعاس ورغبة ملحة بالنوم دون أن يكون لضوضاء المعادن عائق في ذلك، زحف الوسن الآسر فوق عينيه فأسدل جفنيه بحركة استعراضية مغرية، غاب في عالم الانتهاء.

انطلق بهما القارب العبّار يشطر دجلة على شطرين متوازيين أقعدها إلى جانبه في المقدمة عند خيشوم القارب بينما يجلس رجل أشيب قصير القامة في المؤخرة يسافر بهما إلى عالم حافل بالدهشة، استنشقا الهواء معا هواءً ممزوجاً برائحة الحرية وطعم الخلود، غيرَ آبهين بما يدور خارج حدود العالم الخاص أومأ إليها برأسه بحركة فنية كشفتْ عن مهارة فريدة في الولوج إلى القلوب، أطلقت بصرها على امتداد النهر الذي يزاوج بين جانبي بغداد، النهر يتدفق وينساب بهلامية هادئة، قالت بصوت متهدج بعد أن سافرت مع سفر النهر:

- أنا خائفة بلال .. لا زلت خائفة

حدق في وجهها كأنه يبحث عن شيء ما:

- خائفة؟ ! وهل يجدرُ بنا أن نخاف ونحن نحلقُ معاً فوق نهر من الأمان؟

اقتربت منه دون أن يكون لسكينته الموعودة أثرٌ فيها، تلفع وجهها الوضّاء بالوجوم، عيناها المشرقتان خبا فيهما بريق الروح:

- أخشى من السقوط في النهر، أنا أخشى الماء كثيراً

قهقه بصوت عالٍ فأجابه النهر بقهقهة مشابهة:

- لو كان النهر مخيفاً إلى هذا الحد ما بنيت حوله القصور، والمتنزهات التي يقصدها الناس بحثاً عن الأمان المفقود، عليكِ أن تطردي شبح الخوف فأنتِ بمعيتي الآن.

سرق نظرة إلى وجهها فألفاها تصارع شعوراً باليأس، همت بالصمت كانت واجمة وهي تتشبث بالألواح الخشبية، قبل أن يضيفَ بذكاء:

- رأيتُك في منامي ليلة أمس كنتِ في غاية البهاء والجمال
- .....
- كنتِ ترتدين زيًّاً شعبياً مذهلاً، وبين يديك فسيلة صغيرة، لا أعرف لماذا كنت تصرين على غرسها فوق خيمة الوبر!

نظرت في عينه كأنها تهم بالتحرر من وجومها المر، قالت كأنها تريد تفنيد زعمه وافترّ ثغرها عن ابتسامة مشرقة:

- فوق الخيمة؟
- نعم .. هكذا خلتُك تفعلين على ما أذكر ... لكنك كنتِ مدهشة حقاً ... والغريب في الأمر أنني لم أستطع التحدث إليك مطلقاً كنتِ تقرأين كل ما يجول في خاطري بمجرد أن تلتقي عيني بعينك
- ربما حال بينك وبين الكلام أمر ما .. البرد مثلا أو الشعور بالجوع أو رغبتك عني

تفاعل مع دعابتها، وأحس بنشوة الانتصار:

- ربما .. ! وربما يكون الجمال الآسر سبباً في ذلك

لامس ذقنها بلطف ونصَّ رأسها فتقابل الوجهان، قال بصوت خافت كأنه يخشى على حروفه من الهرب "أحِبُّكِ" تلقى وجهها البهي الكلمة باستحياء مبهم احمرت وجنتاها طفح على عينيها بريق الروح، بعد لحظة من ذلك القدر تغيرت ملامحها غارت عيناها في محجريهما وقفز الرعب في قلبها أخذت ترتجف، تيبست الحروف على شفتيها، قال وهو لا يكاد يصدق تغير حالها:

- ما بك ؟ !

أشارت بيدٍ مرتعشة إلى الأمام، استدار فأبصر قرشاً هائلاً يشمِّر بقرنه البارز فوق سطح البحر، التفت إلى السائق لكنه بُهِتَ عندما لم يجد له أثراً .. صرخت أسيل وسرعان ما تلاشت تلك الصرخة على سطح ذلك البحر العظيم الذي لا يعرف له حد تحول النهر العذب الآمن إلى بحر متلاطم اختفت شواطئ المدينة الراكدة، ثلاثة حيتان ضخمة تحوم حول القارب لا زالت أسيل ترتعد وتصرخ فقدت التوازن انهارت أسلمت روحها لذلك المد الأزرق الرهيب ، حاول أن يلحق بها لكن شيئا مجهولا شلّ حركته ولم يحرك ساكناً صاح بإثرها : أسيل ... أسيل ... أسيل.

تشبث بيدٍ ما سحبها بقوة لكنها كانت يد الدكتور علاء رحيم الذي يجلس إلى جانبه داخل القطار إذ أراد أن يخلصه من تدفق الهلوسات، انتفض من إغفاءته الغامضة حملق في المكان لا تزال الأنظار موجهةً إليه ولا تزال كف الدكتور علاء عالقة في حجره، قال الدكتور وهو ينتشل يده بهدوء:

- هل أنت بخير سيدي؟
- نعم نعم ... لا بأس، فقط أجهدني كابوس مزعج
- حسنا لا تقلق سآتي لك بماء بارد

كان الصهد يغلي وليس ثمة أشقى من حرارة الجو تحت رحمة هذا الصهريج المكتض بالنفوس، عاد الدكتور بعد لحظات وقدم له قدح الماء، شرب بنهم بينما كان جبينه يتفصد عرقاً، شكر علاء على جميل صنيعه فمدّ الدكتور يده :

- علاء رحيم أخصائي بأمراض الأطفال من سكنة البصرة

صافحه بلال الذي بدت على وجهه ملامح الاهتمام:

- أهلا بك سيدي تشرفت بمعرفتك، أنا بلال فوزي واحد من الناس

توقّف الدكتور علاء عند العبارة الأخيرة وتيقّن من شقاء الرجل، بادر بفضول:

- يبدو أنك كنت غارقاً في حلم عاطفي، تناهت إلى مسمعي بعض ألفاظِ الحبِّ لكن الكثير منها لم يكن مفهوماً

قال بلال وهو يعتدل بجلسته:

- هل كنت أهذي؟
- عفواً أستاذ بالعكس كنتَ تلحِّنُ اسماً ما
- اسم؟ ... أيُّ اسم؟

- أسيل ... لقد رددتْ شفتاك هذا الاسم مراراً ولم أعمد إلى إيقاظك فقد حدست بأنك هائم بفضاء امرأة ما
- آه ... أنا متأسف دكتور، أرجو المعذرة، لم أعش حلما منذ زمن بعيد لأنني تعودت على النوم المتقطع

أشفق الدكتور لأجله وأضمر له وداً عظيما:

- لا داعي للأسف ... ليس من اللائق جداً أن نحاسب أنفسنا على الأحلام أيضا، فالأحلام تعيشنا ونعيشها دون وعي منا
- صدقت

أحسّ الدكتور بعدم رغبة بلال في الكلام عندما لم يردف "صدقت" بحرف فصدّق على انتهاء الحوار، مرَّ وقت طويل ولا يزال بلال يتابع شلال الصور المنهمر عبر النافذة ولا يعرف ما سرُّ السعادة التي تجتاحه كلما أرسل عينه عبر الزجاج، أخرج السجل سَطَّرَ تحت (م9127):

(م9128): أشعر بسعادة غامضة وغامرة في الوقت ذاته، كلما نظرت إلى ذلك الشلال المتدفق أشعر باستكانة في الروح ولا أعلم فقد يكون السعي وراء المجهول يولد ذلك الشعور المفعم بالانتشاء.

بلال فوزي
الطريق إلى البصرة /عربة القطار
2 / 8 / 1992

أعاد السجل إلى الحقيبة، أحس برغبة عميقة في قراءة الشعر تناول ديوان الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي، لَحِظَ الدكتور علاء تأنق جليسه عندما اختلس نظرة خاطفة إلى قلب المذكرة (م 9128)، فأقام له حفاوة عالية تليق بذوقه الرفيع، فتح الديوان قرأ بصوت لا يكاد يسمع ضاعت حروفه بين ضوضاء الحديد المصطك، لكن الدكتور علاء تابع بفضول وقرأ هو أيضا دون أن يكشف ذلك لبلال:

حان حرماني وناداني النذيرْ ما الذي أعددتُ لي قبل المسيرْ

زمني ضاع وما أنصفتني زاديَ الأولُ كالزاد الأخيرْ

حان حرماني فدعني يا حبيبي هذه الجنة ليست من نصيبي

آه مـن دار نـعيـمٍ كـلـمـا جئتـُها أجتـاز جسـراً مـن لـهيبِ

هتف الدكتور "جميل ... جميل جداً"، التفت بلال ولم يتمكن من إخفاء انشراحه بانتفاضة جليسه، فبادر:

- هل أنت مهتم بالشعر والأدب؟

أجابه الدكتور بصوت بدت عليه ثقة طافحة:

- وهل ثمة ما يفصل بين الطب والشعر؟

أجاب وسأل دون أن ينتظر من بلال جواباً:

- إن ما يربط الأطباء بالشعر أمر فطري، ثمة كثير من الشعراء المحدثين هم في الأساس أطباء، ولعل الدكتور إبراهيم ناجي الذي بين يديك خير دليل على ذلك
- هذا صحيح، ربما يعود سبب هذه العلاقة بين الطب والشعر إلى كون الأول يضمّد الجروح بينما يجنح الشعر إلى فلقها !
- ربما ...

أضاف بعد أن لاذ بلال بالصمت:

- ولكن لماذا إبراهيم ناجي بالتحديد، هل لأن ديوانه عبارة عن قصيدة حب أم أنك ترى فيه بلالاً آخر بشكل أو بآخر؟
- ربما ...

أيقن الدكتور أن سيرة الحب تترك في نفس بلال أثراً حزيناً، فحرف مسار الحديث :

- طيّب بلال هل أنت من سكان البصرة ؟ هل لديك أقارب أو معارف فيها؟
- أبداً
- إذن ما الذي دفعك إلى السفر... ما دمت لا تملك شيئاً فيها؟
- في الحقيقة ينتابني في أحايين كثيرة شعور بأنني أملك البصرة كلها، على الرغم من أنني لم أزرها من قبل ولا أعرف فيها أحداً

تنهد بحرارة قبل أن يضيف:

- المهم أنني أردتُ أن أترك بغداد وأترك معها كلَّ ما يثير في داخلي شعوراً باليأس والألم، فخروجي منها أهم بكثير من دخولي أي مكان آخر
- عجيب
- أين العجيب في الأمر؟

- أن تذهب إلى مكانٍ ليس لك فيه إلا الهواء أمرٌ في غاية العجب

ضحك بلال للمرة الأولى بصوت خافت، كأنه يهزأ بما يقول الدكتور:

- ولماذا تستخف بالهواء هل صار الهواء النقي أمراً يسيراً إلى هذا الحد؟ ما فائدة أن تمتلك العالم دون أن تقوى على النوم للحظة واحدة، تحيط بك الهزائم من كل جانب، ساعات ميتة ودقائق لا تكاد تفصح عن فرج

نظر الدكتور إلى بلال نظرة تعجب ممزوجة بالشفقة، قال بعد لحظة صمت:

- هل تركت شيئا في بغداد؟
- لم أترك سوى العذاب

استحث الدكتورُ بلالَ على الحديث فوجد الثاني في الأول إخلاصا في الإصغاء فقصّ عليه حادثة استشهاد أهله في ذلك القصف الذي طال بيته الهانئ بدعة السماء، ولم يخفِ عنه اشتغاله في مصنع الأدوية الذي تركه دون أن يكتب طلبا باستقالته كان متلهفاً لمغادرة المكان، الدكتور علاء رحيم الذي ظلّ طوال الوقت يصغي لحديث بلال بشغف ولهفة طبيب يسكن مدينة البصرة اعتاد على زيارة العاصمة لدواعٍ خاصة وعامة لا يجد متعة في السفر إلا إذا سافر في القطار ذهاباً وإياباً، تعمد الدكتور أن يواصل الحديث مع بلال لاسيما فيما يتعلق بذلك الاسم الأسطوري "أسيل" سأله عنها ولم يكد ينطق باسمها حتى خيم الوجوم على وجه بلال، وتلاشت السعادة التي غمرته منذ أن ترك بغداد، أحس برغبة كبيرة في البكاء لكنه أحس برغبة أكبر في الحوار، واصل بانتقام:

- أسيل ... فتاة لا تختلف كثيراً عن بقية الفتيات لكنها لا تُشبه واحدةً منهن على أية حال، هكذا أراها دوماً عالما أنثويا خاصا لا يمكن أن يضاهيه عالم ثانٍ

سكت .. تابع الشلال، استحثه الدكتور:

- أكملْ

قال دون أن يغير من وضعه وظلت عيناه مشدودتين إلى نافذة، بينما عمّرت تلك اللحظات الخانقة في داخله إحساساً معجوناً بالسعادة والحزن:

- التقت عيناي بعينيها داخل باص المصلحة عندما نهضت وتركت لها مكاني فارغا لتجلس وأقف أنا، كانت جميلة جداً وكنتُ مربَكاً جداً، ظل قلبي معلقاً بها طوال الوقت ولطالما تمنيتُ أن يمتدَّ بنا الطريق إلى الأبد، كانت في غاية الهدوء والسكينة ظلت ابتسامتها الآسرة تجول في المكان قبل أن تحط في مخيلتي، انتهى ذلك الجنون بعد

لحظات خانتني الدقائق والساعات في ذلك الموقف لم أكن أتوقع أن الزمن يمر سريعاً إلى هذا الحد، هناك عند نقطة حي الجامعة توقف الباص ونهضت مع مجموعة من سكنة وزوار حي الجامعة رمقتني بابتسامة شكر وثناء ثم تهادت وتركتني وحيداً بين وجوه الناس الحيارى، لم أكن أعي حقيقة ما أمرُّ به في تلك اللحظة ... كل ما كنتُ أفكر فيه هو القفز من النافذة، لقد أحسست حينها بضعفي وجزعي أمام حسنها الساحر، أيقنت بأن لبعض النساء سحراً كفيلاً بتجميد العقول والقلوب ولا يمكن أن تصدق عليه تدابير معينة.

تولاه الوجوم تسلق الصداع إلى رأسه لكنه واصل:

- عانيت كثيراً قبل أن تُكْتَبَ لي رؤيتُها ثانيةً، لكنني لم أتمكن من الحديث معها، وتكررت المرات التي أراها فيها دون أن أجرؤ على خلق الحروف تمسح وجهي الخابي بنظرة من عينين فاتنتين ولا أطمع بغير هذا الرزق يومياً، كنت أحب ذلك الباص كثيراً، كأنني عشقتُه قبل عشقِها كنت أستمتع كثيراً عندما أكون داخله وأشعر بطمأنينة وسعادة، في إحدى المرات لم أعد أحتمل الصبر عند نقطة نزول حي الجامعة تهادت برقة بالغة لكنني تبعتها دون وعي مني مشيت خلفها منقاداً لسحرها، في تلك الأثناء راودني شعور بالذل والخجل فكّرتُ جدياً بالتراجع لكن شيئاً خفياً حاربَ الفكرة وطردها خارج حدودِ ذاتي، أسرعتُ في العدو وصلت استوقفتُها بإشارة خجولة من طرف السبابة، أوكلت مهمة الافتتاح إلى إصبعي وقفتْ قبالتُها وجهاً لوجه عندئذٍ تخلتْ عني حواسي لم أعد أشعر بشيء وقفت أمامها كالتمثال لم أتمكن من ولادة الجمل، لم أتمكن من النظر في وجهها، اكتشفت أن اللغة هي الخلُّ الخائن والبضاعة الكاسدة كنت أراهن دوما على بلاغتي وتفنني في سوق الكلمات أمامي، لكن الحال تغيرت في تلك اللحظة الرهيبة حاولت أن أستدرج بعض الحروف والكلمات لكن الأبواب كانت موصدة كأني بها تقول "اذهب أنت وربُّك فقاتلا" اللغة أول جندي يهرب من ساحة حرب الحب، خذلتني لغتي وتركتني أواجه مصيري وحيداً ازداد الموقف تأزماً وكلما مرت ثانية جديدة أتيقن من عدم جدوى المقاومة وأن لا سبيل إلى كسب ود الحروف، قالت بعد أن نفدَ صبرُها: "تفضّل" ولم يزدني ذلك الفعل الآمر إلى حيرة ويأساً فصدّقتْ على استشهادي في تلك اللحظة وأطلقت رصاصة الرحمة فمات فيَّ كلُّ شيء إلا إصبع وحيد ظل يعبثُ بطرف القميص طوال الوقت.

انفجر الدكتور علاء بضحكة مدوية تدارك سياق الحال فبلع نصفها قال وهو لا يزال يكتم ضحكته اليتيمة منبهراً برشاقة بلال في الحديث:

- أعتقد أن ذلك الإصبع مثّل دور الجندي المجهول في تلك المعركة ويستحق تكريماً خاصا لقاء موقفه ذاك !

تلقى بلال الدعابة ببرود وألقى نظرة إلى الشلال، أحس الدكتور بالذنب، استدرك جاداً كأنه أعلن البراءة من النكتة:

- هل انتهى كل شيء عند ذلك الحد؟
- أبداً ... استفدت كثيراً من تلك المحاولة الفاشلة، عندما تابعتها واستوقفتها في المكان نفسه في المرة التالية وتمكنت من مصارحتها بحبي وإعجابي لكنها فاجأتني بصمتها المخيف ظلت واجمة ولم تنبس بحرف، نظرت إليَّ نظرة غامضة لم أدرك كنهها ثم واصلت سيرها، بينما شعرت أنا بخيبة شديدة وبرغبة عارمة في مواصلة الحب

زفر بحرارة وهو يسند رأسه إلى الخلف، حدس الدكتور علاء بأنه لم يفلح، فاستفهم:

- هل كان ذلك هو اللقاء الأخير؟

واصل بلال حديثه المشحون بالعذاب دون أن يلتفت لسؤال صاحبه:

- بعد ثلاثة أشهر من ذلك اللقاء الأبيض تمت الخطوبة.

هتفَ الدكتور كأنه فاز بجائزة:

- ممتاز !.
- لكن الله لم يكتب لتلك الفرحة العمر الطويل فلم يمضِ سوى شهر واحد على الخطوبة حتى فقدت كلَّ شيء في تلك الليلة المروعة

غرقت عيناه بماء دافئ شعر بالوجع والألم في صدره تزحلقت دمعة ثائرة فوق خده الندي، أشفق الدكتور لأجله وأحس بضرورة التدخل فربّتَ على ظهره بعطف:

- حسناً بلال ... دعك من هذا الحديث الآن لا ترهق نفسك في تنقيب الماضي ونبش الذكريات الأليمة

لم يعر بلال مواساة صاحبه اهتماماً، واصل:

- بعد حادث الرحيل الجماعي تغيّر كلُّ شيء إلا الحب، لم تزده قسوةُ الأيام وشراسةُ الأحداث إلا بريقاً وصدقاً، التقينا مراراً وتعاهدنا على الحب ذاته الذي بدأناه في اليوم الأول، بعد أن رحل عني الجميع كانت أسيل البلسم الوحيد الذي أتداوى به وأنا أصارع ألم الذكريات المرة، لذلك كنت أخشى عليها من الاندثار والفقدان لأنها آخرُ ما تبقى لي في بغداد الرشيد

- هل تزوجتما ؟
- للأسف لا ... لم يستطع أبوها التصديق على هذه الحكمة، فبادر إلى نفيها عن ناظري وإبعادها عني، ولم يكتفِ بهذا القدر وإنما عمل جاهداً على فكِّ الخطوبة وتمكن من ذلك بعد أن أجبرها على عدم الخروج من البيت خشية أن تلتقي بي وعندما تأكد من التدابير لا يمكن أن تضع حداً للحب الذي يجمعنا أجبرها على إكمال دراستها في تونس فأرسلها إلى هناك ليستقبلها عمها الذي كان يعمل هناك تدريسيا في إحدى الجامعات أُخذت إلى هناك مجبرةً مرغمةً لكنها في نهاية الأمر تركتني وحيداً، فما كان مني إلا أن أبحث عن وطن جديد يؤسس لي تاريخاً جديداً علّه ينسيني بعضاً من ذكرياتي القاحلة التي لا تزال تحتفظ بحرارتها داخل سجليَ الخاص

أبدى الدكتور علاء تعاطفاً جمّاً مع بلال بعد أن أنصت له واستمع إليه وهو يسترسل في الحديث الشجي، رأى فيه أخاً وصديقاً وإنساناً، فقال:

- لا بدّ أن تكون مؤمناً بهذه الحكمة ولا شكَّ أن الخير فيما اختاره الله ... وينبغي أن تجعل في تصورك أنك شاب في مقتبل عمرك وليس ثمة من شك في أن الله عز وجل قادر على أن يبدل أيامك تلك بأيام أبهى وأجمل، لكن يجدر بك أن تجدد الثقة بنفسك
- ...
- هل سترجع إلى بغداد مستقبلاً
- مطلقاً
- طيب ... أين ستذهب حال وصولنا البصرة
- لا أعرف ... ربما أقضي ليلتي الأولى في المحطة ثم أشرع في البحث عن فندق مناسب أو حجرة بسيطة أقضي فيها ما تبقى في محفظتي من نقود ريثما يتسنى لي إيجاد عمل ما
- لا ... لن تذهب إلى أي مكان سنذهب إلى البيت معاً وبعدها لكل حادث حديث

تركا المحطة واتجها إلى البيت كان بلال يطارح شعوراً بالطفولة، أثناء الطريق إلى البيت استعار بلال فضول الدكتور علاء أثناء رحلة القطار، وراح يسأله عن معالم البصرة وشوارعها وشواطئها يسأل بإلحاح طفل كأنه فاز بميلاد جديد، ولم يكن الدكتور أقل سعادة من بلال فقد التقيا على مودة وصفاء عظيمين، قضى بلال ليلته الأولى في بيت الدكتور أحس بميلاد جديد فعلاً اضطجع على السرير التقط أنفاسه حاول قراءة نفسه من جديد، فكّر باسترجاع الماضي والوقوف على بعض صوره لكن رغبة شديدة بالاهتمام بما سيحدث منعته من ذلك فتناول السجل، كتب:

(م 9129): الشعور بعدم الاكتراث بشيء ليس أقل جمالاً من كونك تعيش مصفرَ الذاكرة لأنك في كلا الحالتين ستفوز بقدر غير قليل من السعادة.

بلال فوزي

منزل الدكتور علاء رحيم/ البصرة

1992 / 8 / 4

بعد مرور شهرين حصل بلال على عمل في إحدى مختبرات مستشفى الرازي التي يعمل الدكتور علاء فيها، ولم يكد يمرُّ زمن طويل على ذلك حتى وجد بلال نفسه في مواجهة امرأة جديدة لكنه كان ذا حظ عظيم هذه المرة فعقد قرانه على الدكتورة خلود الوائلي التي تعمل في المستشفى نفسها، بينما تم زواجه منها بعد ذلك بأيام لتحتفي بهما البصرة الفيحاء في عرس منمق بالسعادة، مر على زواجهما عامان قبل أن يبارك الله لهما فيه ويُرزق بلال طفلاً في غاية البهاء سمّاه "علاء" حباً لصديقه الذي آواه واحتضنه الدكتور علاء، لكن تلك الأحداث المثيرة لم تكن لتمر دون أن يستضيفها سجله الخاص، فيحاذر أثناء تسجيلها من أن يرى شيئاً من الماضي، ويستمرّ مسلسل المذكرات في هذا السجل المخضرم ليبقى زمان ومكان المذكرة الأخيرة مجهولاً لا يعلمه إلا الله.

2012 / 7 / 3

نهر الغَين الثانية

أيامٌ تمضي وليالٍ تنقضي، والناسُ في حراكٍ مستمرٍ وقلق متزايدٍ، وقف حازم عند محل عبدالله مرعي عصر يوم الخميس الموافق الثالث عشر من أيار سنة 2017، كان يائساً محطماً يشاهد الناس يحاولون التمسك بالأغذية منتهية الصلاحية من أجل البقاء، نظر إلى الشارع المنتشي بالمارة، حاول أن يسلي نفسه بالأسئلة التي لا تفترض أجوبة قدر افتراضها ألماً، قال في نفسه: هؤلاء الناس وهم يجوبون الشارع من بدايته إلى نهايته، ماذا يدور في بالهم؟ بماذا يفكرون الآن؟ كانوا يتوقفون عند أصحاب المحلات، يسألونهم عن الجديد الذي يُمكن أنْ يعوضهم فقدان أو شحة مادة ما، السكرين بدل السكر، الكاكاو منتهي الصلاحية بدلا من اللبن، والمساحيق التي تباع كعصائر بدلا من كل الفواكه والزاهي "السوري الزين"! بدلا من كل أنواع المنظفات، كانت أسئلته تطول وتطول لكنه وقف عند سؤال محير، ألقى نظرة عميقة إلى تلك الرؤوس التي أحرقتها أشعة الشمس تساءل ببرود وضياع، من سيعيش من هؤلاء بعد انتهاء الحرب ومن سيموت؟ ظل سؤاله عالقاً لم يجد له إجَابة إلى الأبد، أحسَّ بلذعة فراق صديقه يوسف القزاز الذي تجسدت صورة غيابه في تلك الأسئلة الصامتة التي تركها منذ أن رحل، شعر باليأس تجاهه، كان يشاهد الوجوه الجديدة وهي تجوب شارع الفاروق، في كل يوم ثمة هجرة إلى داخل الأحياء وهجرة منها إلى الخارج كانت هجرة عكسية الكل يهرب من الموت بصرف النظر عن المكان الذي يلتجأ إليه، فقد يكون أشد عرضاً للحرب من سابقه لكن خيار المواجهة يظل صعباً ولا يستطيع أي إنسان مواجهته أو الوقوف ضد تياره إلا ما ندر.

دخل حازم إلى البيت وجد أباه غاضباً وهو يوبّخ أخاه مازن، مازن بقي صامتا مطأطئ الرأس، يحرك عوداً صغيراً كان ملقى على الأرض، ظلت مشكلة الحمام عالقةً في بيت الحاج حسن بين تعلق مازن وانصهاره بها، وبين رفض أهله الذين يخشون عليه من أن تناله العقوبات التي كانت تلاحق مربي الحمام في تلك الفترة، استعان الحاج حسن بعقله وعلمه وحكمته في محاولته معالجة تلك المشكلة التي طالما أرقته وأرقت الحاجة أم حازم، كان مازن منكباً على تلك المساحة من الاهتمام، فقد وجد نفسه فيها بعيداً عن سطوة العالم الخارجي، وعلى ما فيها من مخاطر قد تؤدي إلى إلحاق الاذى به بغيره ممن حوله إلا أنهم وجدوها حالة لا تخلو من الإيجابية، كانت العوائل الموصلية تستخدم أسلوبها الخاص في معالجة مشاكل المراهقين ومتابعة

قضاياهم الخاصة، فقد أصْبَحَ الانضمام للتنظيم ورقة تهديد يستخدمها أغلب أولئك المقبلين على الحياة بشبابهم الغض، فيضطر الكثيرون إلى محاولة إشباع رغباتهم خوفاً من أن يكونوا ضحية يسيرة ولقمة سائغة في فك الحرب الذي طال المدينة وحطم تراثها وبنيانها وأدى بحياة مئات الالاف من أبنائها، كان الزواج المبكر علامة من علامات تلك الفترة من تاريخ الموصل، فيعمد أكْثر الناس إلى تزويج أبنائهم ومحاولة إشغالهم بوعثاء الحياة في محاولة لإبعادهم من خطر الاندماج في الحرب، فكانت لعبة الحمام التي كان مازن يتخذها سياقاً ونسقاً حياتياً مغايراً عبارة عن ورقة يتحرك بها في مجال اشتهائه وتماهيه.

حاول أن يتدخل حازم فيخلص أخاه من حالة انكبابه على الأرض ليشغل أباه بحادثة أخرى وحديث مغاير أعطى الفرصة لمازن لمغادرة المكان وبالفعل استغل مازن تغير الجو وانسحب بهدوء إلى غرفته، كان حازم يحمل دلواً من الماء فرماه على الأرض ونفث في الهواء نفساً عميقاً:

"لا تسرفوا في الماء، فقد تم قصف المشروع الذي يغذي المنطقة بمياه الشرب"

هزّ الحاج رأسه دون أن ينبس بكلمة، أحسّ حازم أن أباه وجه إليه توبيخاً بصمته، لم يستسغ حازم توبيخ أبيه له، بدأت أزمة المياه تتفاقم يوماً بعد آخر، استهدفت قوات التحالف شبكات المياه وصار من الصعب جداً الحصول على المياه الصالحة للشرب، ظل نهر دجلة الذي لا يبعد سوى خطوات عن بعض البيوت المحاذية له بعيداً جداً، على اعتبار أنَّهُ أصْبَحَ خط صد وحداً فاصلاً بين ضفتي الموصل وعالميها، لم تكن تلك الأزقة لتكون حادة جداً لولا اقتراب حلول شهر رمضان كانت الآبار الارتوازية الموجودة في أحياء الموصل القديمة المصدر الرئيس للحصول على المياه، لم تكن صالحة للشرب لكنها كانت الأصلح في تلك الفترة مع انعدام وجود المياه، ويوم بعد آخر بدأت مخزونات المياه تقل وتشح لدى الأهالي ما يكون الاهتمام الفعلي على تلك الآبار التي منها ما يكون محصوراً بيد الناس ومنها ما يسيطر عليها التنظيم نفسه، لم تمر أيام إلا واصبحت فرصة الحصول على عشرين لتراً من مياه البئر من أكبر المنجزات التي يقوم بها الإنسان، ظل الناس يقفون في طوابير طويلة لساعات في سبيل الحصول على المياه، كان بيت الشيخ رضوان الحنفي من البيوت القليلة جداً التي تتمتع بوجود بئر ارتوازي بداخلها، بدأ الطابور من الفتحة العلوية للبئر لينتهي عن نهاية الجامع الكبير وهو يستدير باتجاه شارع

الفاروق، كان هناك متطوعون من شباب المنطقة يشرفون على تنظيم الطابور وحل النزاعات بين المصطفين ومحاولتهم الحيلولة دون حدوث مشاكل ونزاعات بينهم، تجمهر فوق رأس البئر عدد كبير من الشباب الذين يحاولون أن يخترقون النظام مما يثير سخط المصطفين الذين قضوا ساعة أو ساعتين وهم في طريقهم إلى رأس البئر، لم تكن مياه البئر صالحة للشرب، وعلى رداءتها كانت شحيحة جداً غير متوفرة، استطاع مازن أن يمسك بخزان ماء فئة العشرين لتراً وأن يحشر نفسه بين إبراهيم الابن الأكبر لعبدالله مرعي صاحب المحل وبين شاب غريب يبدو أنَّهُ قدم إلى المنطقة حديثاً، قام الشاب بدفع مازن خارج الطابور، فتعثر وسقط على الأرض وأصيب بكدمات بسيطة في يده اليسرى، نظر إلى يده فكان يسيل منها خيط رفيع من الدم، وما أن رأى مازن الدم حتى هاج وجن جنونه، فقام على الفور ورفع يده محاولاً ضرب الشاب الذي كان قصير القامة مفتول العضلات كان صدره عريضاً غزير الشعر، ينبث فوق كتفيه رأس صغير مدبب، استطاع أنْ يتقي ضربة مازن بحركة احترافية فوقعت في صدر إبراهيم عبدالله، أمْسَكَ مازن بخزان الشاب ورماه بقوة خارج الطابور، لم يستطع إبراهيم أن يفهم الشاب بأن مازن كان موجوداً في الطابور وذهب إلى البيت ووضع خزانه وقال أنَّهُ سيعود سريعاً مستأنفاً انتظاره، ارتفع صياح مازن متهجماً على الشاب، اشتبك معه لكن الشاب حاول ابعاده عنه بأي طريقة، شاهد حازم تصاعد الاتربة وسمع تلك الصيحات من بعيد، اتجه نحو الطابور الذي فقد اتزانه ونظامه ما دفع الشيخ رضوان إلى غلق البئر وغلق الباب في وجه المنتظرين هاج الطابور على الشاب، كان غريباً لم يعرفه أحد، ومع تزايد الصيحات عرف حازم صوت مازن فجاءه راكضاً راه محتقن الوجه وقد احمرت وجنتاه، الدماء تسيل من يده اليسرى، وفور رؤيته لحازم استأنف مازن هجماته ضد الشاب فاشتبك معهم حازم وتعالت الصيحات انحاز بعض الحاضرين إلى حازم ضد الشاب عندما وجدوه غريباً، بينما انحاز آخرون معه عندما وجدوه وحيدا، لكن جمعاً غفيراً من الناس كانوا يشاهدون المعركة من بعيد وكأنها لا تعنيهم، صاح الشيخ رضوان الحنفي بهم جميعاً عندما كان واقفاً فوق سطح بيته محاولاً تهدئتهم:

"يا ناس استهدوا بالرحمن، واتقوا ربكم"

ضاع صوته بين أصواتهم وصخبهم، تلقى حازم لكمة مؤذية في وجهه فسقط أثرها على الأرض لكنه استطاع أنْ ينهض بسرعة وعاود المشاجرة استطاع إبراهيم أن يسحب حازم إلى

الوراء عندما تعلق بخصره ما اعاق حركته وكانت الفرصة مواتية للشاب فوجه له ركلة قوية أسقطتهما معاً، ظل جمع غفير من الحاضرين يستمتع بمشاهدة الموقف محاولين اقتناص الفرصة حتى يخف العدد ويحصلوا على حصتهم من المياه، وفي لحظة البرق انتبه الجميع لذلك الصوت المرعب، وهو يقترب منهم ويخترق كل أصواتهم الهشة، لتسقط تلك القذيفة الصاروخية في الباحة الخارجية أمَام بيت زكي أبو أمير في الجهة المقابلة لبيت الشيخ رضوان، كانوا قد هبطوا وخفضوا رؤوسهم لكن سرعة القذيفة ومباغتتها كانت عالية، فراح ضحيتها ستة أشخاص وأصيب عشرة بجروح متفاوتة، كان في مقدمة أولئك الذين سقطوا الشاب الغريب الذي كان شرساً محاولاً الدفاع عن نفسه، كما تجاوزت شظية خاطفة كل الحاضرين لتستقر في صدر الشيخ رضوان عندما كان واقفاً فوق سطح المنزل يحاول أنْ يهدئ من توتر الناس، أما إبراهيم عبدالله فقد أصيب بشظية صغيرة لكنها جاءت في مؤخرة رأسه ما أدت إلى وفاته في الحال، أما حازم فقد نجا من الموت بأعجوبة عندما كان إبراهيم يلتصق به محاولاً خفض رأسه لكنه أصيب رغم ذلك بشظية صغيرة في ساقه اليمنى تعالت الصيحات والتكبيرات في المكان، بدأ الناجون بالفرار من موقع المكان خوفاً من قذيفة أخرى قد تلحق بأختها، نظر حازم إلى إبراهيم وهو يحتضر لم يستطع أن يتركه، حاول أن يحدثه لكنه كان مشغولاً في تصفير انتمائه للعالم تاركاً خزانه الذي لم يملأه بالماء ممتلئاً بهواء حار وأتربة ورائحة رصاص.

شاهد حازم ذلك الشاب ملقى على وجهه تسيل من تحته دماء جديدة، لم يعرف الجميع ذلك الشاب كان ضحية من ضحايا تلك الحرب التي دمرت مستقبله وأنهت حياته ظلت لفترات طويلة وهو يحاول أنْ يقنع أخيه الأصغر بالابتعاد عن نار الحرب محذراً إياه من مغبة الانخراط مع التنظيم خصوصاً بعد سلسلة الحروب التي خاضوها وكانت النتيجة خسران مساحات جديدة من الأراضي، كان أخوه البالغ من العمر سبع عشرة سنة يمارس تسلطاً كبيراً على أبناء القرية التي يسكنون فيها جنوب الموصل، ومع تقدم القوات العراقية اضطروا جميعاً للهروب والسكن في منطقة المأمون، لكن المأمون أصبحت فيما بعد تحت مرمى القوات العراقية فصار لزاماً عليهم السكن في الموصل القديمة وتحديداً في منطقة المكاوي، كانت السلوكيات التي قام بها أخوه جعلته يفكر في الهجرة خوفاً من أن يدفع ثمن ذنب لم يرتكبه، وظل ذلك القلق يراوده وينتقل معه

من منطقة إلى أخرى، كان يهرب من الموت لكنه جاء إلى الموت بنفسه فلقي مصرعه وهو بريء من كل تلك التفاصيل التي تعلقت في عنقه وراح ضحيتها تاركاً خلفه أبويه المقعدين.

دخلت المنطقة في حالة من الإنذار بعدَ أنْ سقطت تلك القذيفة، استطاع مازن أن يخلي أخاه من المكان، كانت إصابته طفيفة قياساً بحجم الكارثة التي حلت بالمكان، أما بقية الجرحى فتم إسعافهم عبر مساع أهلية خاصة، أصْبَحَ الوضع في مستشفيات المدينة خطراً جداً مع اقتحام القوات العراقية لأحياء مشيرفة الأولى والثانية وحي 17 تموز، وأصبحت تحت مرمى النيران، لذا كانت فرصة انقاذهم واسعافهم إلى المستشفيات صعبة جداً، حاول مازن أن يوقف النزيف فراح يربط مكان الإصابة بقميصه وأخذ حازم يسير ببطء وهو يتكئ على أخيه وقبل وصولهما إلى البيت خرج الحاج حسن قد خطف لون وجهه فقد أبلغه أحد المارة بإصابة حازم، وجدهما يسيران ببطء التقت عينا حازم مع أبيه فطأطأ رأسه كأنه يحاول الاعتذار عن تلك المواقف التي كان يتزمت بها عند مناقشته موضوع ترك الشارع والانتقال إلى مناطق أخرى، لم ينبس الحاج بكلمة أمْسَكَ بيد حازم وراح يعينه على السير وعندما دخلوا إلى البيت وجد حازم أمّه وزوجته وهن يبكين ويحمدن الله على سلامته، اسرع مازن إلى ذلك الدولاب (صيدلية البيت) واحضر المعقم والاشرطة وكل مستلزمات الإسعاف الأولي، الحاج حسن يتمتع بثقافة طبية جيدة جعلته قادراً على إسعاف الجرحى وتضميد الجروح وزرق الابر ومعاينة المرضى للحالات البسيطة، بدأ الحاج حسن في معاينة الجرح فوجده بسيطاً فقد كان نتيجة لمرور شظية صغيرة احدثت شرخاً في أسْفل الساق لم تكن إصابته تخلو من الألم لاسيما عندما قام أبوه بتعقيمها وتضميدها كان يكابر ويحاول أنْ يبقى قوياً أمَام أبيه، لم يكن يعلم أن بقاءهم في الحي يشكل لهم خطورة إلى هذا الحد، عاد يفكر في كلام أبيه عن تغيير المكان ومحاولة الابتعاد عن الموصل القديمة لأنها بلا شك ستكون معركة الوجود الأخير، لذا سيحاول التنظيم أن يحتمي بكل شيء وهو متمركز في مكانه بالإنسان والبنيان بكل ما يحيط بهم ولا انسحاب لان البحر من ورائهم والعدو من أمَامهم، بدأت تتضح رؤية الوالد شيئاً فشيئاً، كانت نظرته مكسورة تجاه أبيه الذي بدا ينفذ صبره ولم يعد يطيق البقاء، قال وهو لا يزال منهمك في تضميد جرح حازم دونَ أن تلتقي عينه بعينه:

"ملخص الكلام، لن ننتظر أكثر، جهزوا أنفسكم للرحيل، ربما لن تطول ساعة الانطلاق أكثر من يومين"

كانت كلماته لاذعة وصادمة في الوقت نفسه، طرح فكرته وأعطى قراراً لا رجعة فيه دونَ أن ينتظر رأياً من أحد، كان صارماً هذه المرة وجدوه شخصاً آخر مختلفاً عما عرفوه من قبل ربما هي حكمة الرجال الأقوياء التي تتطلب أحياناً تسلطاً وتفرداً في الراي فثمة احداث لا يصنع تعدد الآراء فيها إلا ضعفاً وترهلاً وانكساراً، لم ينبس حازم بكلمة ظل صامتاً طوال الوقت حاولت أمّه أنْ تَجدَ مخرجاً لأزمة الموقف مسلمة أمرها بيد زوجها.

مرت الساعات ثقيلة على الجميع منذ أن أصيب حازم سقطت على الحي ثلاثة صواريخ مجهولة المصدر سقط الأول فوق ساحة الطوابق في السرج خانة والثاني في بيت الأستاذ غانم رشيد في منطقة سيد توحي ما أدى إلى إصابة زوجته بجروح خطيرة والثالث فوق عمارة القاسم دون وقوع إصابات، شلت الحركة بالكامل ومن لا يجد في بيته ماء ولا غذاء عليه أن ينتظر حتى تسمح له الفرصة بالخروج ليبحث عن ذاته ووجوده من جديد.

ظلت الأجواء متوترة جداً دخل بيت الحاج حسن وخارجه، استطاع مازن أن يخرج نفسه من دائرة الصراع، لم يكن يبدي رأياً بخصوص قرار الرحيل، أهم ما في الأمْر عنده هو تحقيق الرفاهية والانتعاش الحياتي لعائلته الصغيرة، نور وصغارها الذين بدأوا يغازلون الحياة في أوج انتعاشهم دخل إلى غرفة النوم وجد أمّه نائمة، تأكد من عدم وجود أبيه داخل البيت، أما حازم وزوجته ففي غرفتهم، اطمأن من سكينة البيت راح يتسلل إلى غرفة المونة، استغل نوم أهله وقت الظهيرة، دخل إلى الغرفة تحسس الأكياس بدأ ينفضها واحدًا تلو الآخر، ظل يدور في الغرفة لم يجد سوى أكياساً فارغة، كشف الغطاء الذي كان موضوعًا فوق كيس صغير فوجد نصف كيس من الطحين متكئا على الحائط شعر بالانهزام والوحدة، الطحين لا يجدي نفعا، ما العمل الآن، شعر بالإحباط، بدأ يعيد النظر في الغرفة، الغربال المعلق على الجدار جرة مكسورة تنتصب بشموخ في الزاوية، وفي الجهة المقابلة عند مدخل الغرفة تتعلق أجراس الثوم المتعبة كانت قديمة إلى الدرجة التي جعلها تفقد طعمها المميز، تتدلى إلى جانبه مكنسة مصنوعة من سعف البردي كانت تباع في سوق البطانيات بباب الطوب، وقف حائرا يفكر في مكان إخفاء الأرز، وقبل خروجه أرادَ أنْ يتأكد من تلك القطعة القماشية الطويلة، التي تستر ذلك الإزار الذي يمتد تحت الرف الصغير الذي يرفع المؤن عن الأرض، رفع القماش فوجد كيسا صغيراً لا يتجاوز خمسة كيلوغرامات محكم الإغلاق، بدأ يتحسسه بأصابعه قبل فتحه فوجد اصبعه ينزلق تحت الكيس

محدثاً صوتاً ناعماً ما يؤكد أن في الكيس الأرز الذي يبحث عنه طويلاً، أخَذَ يسرع في فتح الكيس وراح يستمتع في النظر إلى كنزه، بدأ يملأ قبضة يده ويضعها في جيبه، وضع أكْثر من خمس قبضات ممتلئة بالأرز، شعر بالاكتفاء ترهلت جيوبه أعاد غلق الكيس، وضعه في مكانه لكنه شعر بأنّهُ تسرع في إغلاقه، فأعاد فتحه من جديد وضع قبضتين اضافيتين في كمه، تساقطت حبات الأرز من حوله، تعقبها واحدة بعد واحدة، فأخفى تماما آثار فعلته، أغلق الكيس جيداً وقبل أنْ يقوم ويعتدل، سمع صوتاً جعله يشعر بالرعب انتفض وكأنه أيقضه من كابوس مزعج:

"مازن ماذا تفعل؟"

التفت مازن إلى الباب فتطايرت حبات الأرز من كمه، كانت خير دليل على سطوته وفعلته، لم يستطع أن يجيب ظل صامتا واجماً، كأنه طفل ضبط بجرم ما، طال صمتهما كانت أمّه تنظر إليه بعين معاتبة غاضبة، كان ينتظر منها أن تفك أسر لسانه لكنها اطالت الصمت فسجنته في عيه، تفاجأ كثيرا عندما قالت له بنبرة هادئة باردة:

"ما الذي وضعته في جيوبك؟"

عندها شعر بدفء الحديث، أجَاب مدافعاً عن موقفه:

"أمي ... أرجوكِ أريد أن أطعم الحمام"

عادت لتصرخ في وجهه كأنها ارادت استدراجه:

"أفرغ ما في جيوبك، واخرج بسرعة"

عندها لم يناقشها التفت إلى الوراء وأخرج الكيس من تحت الرف قام بفتحه، وأخذ يفرغ جيوبه الواحد بعد الآخر، كان مرغماً مكسوراً على إعادة حمله إلى بطن الكيس قتلت فيه كل محاولاته وحيله التي أراد من خلالها صناعة الحياة لنور وعائلتها وصغارها الجدد، لكنه قبل أنْ يمد يده إلى آخر جيب من جيوبه سمع صوتها وهي تقول كأنها خلت عنها نبرة تسلطها:

"هذا يكفي اترك ما تبقى في جيبك واذهب به إلى حمامك"

شعر برغبة عارمة في معانقة والدته وتقبيل يدها ورأسها، لكنه تراجع عن فكرته خوفاً من تراجعها عن قرارها، قام بإغلاق الكيس، محافظاً على ما تم استحصاله في جيبه، وقبل أنْ يغادر المكان مشط الأرض بعين ثاقبة، كان يحاول أنْ يجد حبات هاربة، وبالفعل جلس القرفصاء وبدأ يلتقط حباته هنا وهناك.

دخل إلى قفص الحمام بعدَ أنْ كان مصنوعاً من صفائح السمن النباتي، ووضع القليل من الأرز في إناء صغير هجمت الطيور عليه كبارها وصغارها إلا حمامته المفضلة "نور" كانت تشاهد الموقف من بعيد كأنها تؤثر على نفسها، وتقبل أنْ تجوع مقابل أن يشبع الآخرون، أشفق عليها كثيرا وأخذ القليل من الأرز لكنه تراجع عن الفكرة، أمْسَكَ بـ"نور" وأخرجها من القفص وضعها خارج القفص ونثر أمَامها حبات الأرز، بدأت تنقر وتلتقط بنهم وشراهة، ظل ينظر إليها وكأنها طفلة مدللة أراد لها أن تعيش في وكره وبين دفء حنانه، تلك هي صدفته الجميلة التي جعلته يستلذ بطعم الحياة رغم مرارتها، ويستهوي اختزالها رغم تفاصيلها المزعجة، تلك هي لمحة النور التي غيرت مسار حياته، فكم سيحتاج من الوقت والجهد حتى يفهم من حوله بأن للياقوت حلماً وان للنور مسلكاً، يقتفي أثر الحياة ويستنير بخصائص العنفوان والجمال، هذه هي دائرة انتمائه للعالم الذي صنع منه عوداً صغيراً يابساً ينتظر النار بلهفة لتحرقه.

2019 / 7 / 22

أنثى لربُعِنا الخالي

طائر يرمق المشهد بفضول وشهية والوصية التي ولدت معي تقاوم تسرب المياه نحوها، كنت أحيا بقلبي الذي كان يترجم ظلال المشاة وأصوات الخطوات التي تعبث بالأوردة، بين لحظة واخرى يعود الطائر يحوم حول المكان كأنه رآني قبل ان أراه، ولم اتساءل حينها عن كلمتي التي لم أقلها في وجهه العلني استعين بها على ازقة جسدي الذي يقاوم قساوة البرد، وانا وحيد، وحيد في اكثر اللحظات إلحاحاً بالمشاركة وأقساها لأنها لم تكن كذلك.

هذه الخطى الضالة تتناثر حولي ولا يصحو منها إلا ذلك الفضول المكروه بين الفينة والأخرى يباغتني ذلك الطائر بصمته الرهيب، يفتش عن لقمة ضالة بين صفحات الطريق، لم يتبقَ لي سوى قلبي المثقل بالأسئلة التي علقتْ أجوبتها مصدراً مجهولاً بين آلاف العناوين وملايين الصور الضاحكة.

تمر ريحٌ قويةٌ أحسستُ أنني مهددة بالهجرة تتعالى أصوات النفايات حوالي، كان البرد قاسياً جداً، إلى الدرجة التي تجعلني أحس بدفء قسوته، هذه لحظةٌ مفصليةٌ من عمري من ينهيه؟ ومن يبدؤوه؟ أبحث عن ذلك المصدر المؤول الذي سقطت من عين الفعل ونَسِيَ (أنّه) بين ضمائرَ ميتةٍ، تختلطُ علي الاصواتُ بين خطوطِ الاحذيةِ المطاطيةِ وغضب الطبيعة فوق رأسي، كنتُ أتحسسُ قربَهم وأبحثُ عن يقينهم المتثاقل، تلك الخطى التي سأتذكرها يوم يتركوني وحيداً في قبرٍ أظلم، وربما هي الخطى نفسُها التي تقتربُ لترسمَ فوق جبهتي عمراً معمراً بالذل، تتعالى الأصوات حولي كأنني شعرت بهم فشعروا بي، لكنني أشفقت على ذلك الطير الحالم الذي تعثر حظهُ مع حظي، فلم أكن لقمة طرية لصغاره الجائعين، يقف طفل صغيرٌ فوقي كان عملاقاً حقاً، ينعم النظر فيَّ تجمدتْ اطرافُهُ كأنهُ ينوي اقتناص فريسةً ما، يدقق النظر أكثر، ثم يصرخ بصوت حاد ويهرب دون أن يصطحب بصيصَ الحياة، كنت أرقب عودته لكنه لم يعد، ظلت صورته مرسومة في مخيلتي كأنني أعرفه منذ زمن بعيد، وهذه توأمي لأبد رسالة الحياة، أحاول أن أصد عنها الموجة العاتية، أن أدفعها عن الاختلاط بتلك الأكوام المنبعثة من النفايات، فهي رسالتي وهويتي وثقتي الوحيدة بالحياة لم اعرف هل بدأت وهل ستنتهي ام لا؟

وتعود هذه الخطوات من جديد تقترب بإيقاع متسارع كأنهم استدركوا عليّ موتي، يعود الطفل من جديد وأنفاسه تداهم قلبي، وقف مشيراً إليّ بأصبعه الناصع متناسياً أنني لا أملك إصبعاً مثله بعد ان غافلني فأرٌ كبير وأخذ ينهش به حتى انتهى كأنه شمعة ذابلة، كانوا يتجمهرون حولي هي نفسها نظراتهم التي سأتلوها يوم رحيلي، أشرت بقلبي إلى رسالتي الخاصة التي سقطت من رحم أمي، صيحاتهم وحوقلاتهم وتكبيراتهم، أخذ أحدهم يتقرب مني أكثر فبادر إلى رفعي عن الارض حملني بعد ان لفني بسترته، كان أكثرهم اهتماماً بي وفي الوقت نفسه وجد رسالة بجيبي في ظرف مغلق، فحملني ورسالتي إلى عالم مجهول.

لم تكن تعلم أن القدر يخبئ لها أبشع صور الانسانية، لم تكن تعلم أنها ستكون ضحية سائغة وسهلة تتقاذفها أهواء الحياة، مرت أيام ولعها سريعة كان ماهراً وماكراً في محاورة النساء استطاع ان يوقعها بشباكه بسرعة لم يتوقعها هو، ضلت واجمةً لأيام قبل ان يتعمم عالمها السري ويحمل اسرار الحياة وازرار العفة معاً، ضل يقرأ على مسامعها الوان متشاكلة من الاحاديث حتى استطاع في نهاية المطاف ان يقنعها بزواجه منها ولكن في الخفاء دون العلن، كان خوفها من المجهول كبيراً جداً، ولم يكن هنالك شيء أكبر منه سوى حبها له، وإخلاصها له، فسلمته مفاتيح قلبها قبل جسدها، وكانت شريكة في إشعال فتيل الحرب معه في مواجهة المجهول.

استدرجها إلى بيته المشبوه، ظلت ثقتها به عالية جداً كأنها تخمّن ما في جعبته من أسرار وخفايا، كان يوهمها بسرعة اقترانه بها، ليحوك حولها مصيدة تليق بأقدامها، اخذت تتظاهر باعتيادية مفرطة وهي تضع بيديه حبلاً ينتهي برقبتها وتنتظر اللحظة التي يسوقها فيه إلى الهاوية، مرت الأيام سريعة باضطرابها وخوفها وجنونها تعالت وتيرة المغامرة وانخفضت وتيرة اتصالها به كان يتوقع ما سيحدث لكنه لا يقوى على فرض حصاره على ملذاته فينهش بالأجساد ويعرف الطريقة التي يستطيع من خلالها ان يمر إلى جسد ثاني بسلام ومهارة.

أشهر قلائل كفيلة بان تضعها في تصور كامل لحجم الكارثة، انقطع التواصل معه نهائياً بعد أن أغلق جميع خطوطه، ربما استعار خطوطاً أخرى ليسوق لنفسه ضحية جديدة، بدأت تتحدث عن نفسها، هي تعرف حق المعرفة بأنها ستبقى وحدها في مصيرها المجهول، ما الجنين الذي تحمله في أحشائها فهو يتحمل مصيره بنفسه، دارت الحياة حول نفسها ولم تكن

المصيبة إلا أعظم من حجم التصورات، لينتهي المطاف بمصير محتوم وتضع الطفلة في احدى حواضن النفايات في البلدة القديمة.

كانت خطاه مثقلة جداً وعيناه غارقتان بالدمع هالة المشهد ولم يستطيع أن يفكر في أولويات الموقف فحرضه على المحافظة على الطفل أكبر من ذلك الغزو الذي تشكله جيوش الاسئلة، من ومن أين وكيف ومتى؟ كان متيقناً من أن هذا القدر المفاجئ له ما يوجب الوقوف عنده، تحسست الظرف المقفل في جيبه وسرعان ما تصفحه بعينيه سريعاً، تلقح مساؤه باليأس والحزن:

"أخي الغالي أختي الغالية السلام عليكم، هذه الطفلة التي بين أيديكم إنما هي ذنبٌ كبيراً اقتنيته في غفلة من غفلات قلبي، فلم تكن يوماً ابنة حرام أو نتاج لصدفة محرمة هي ابنتي وابنة أبيها، قضيت معها تسعة أشهر كاملة كانت صحبتي معها حميمةً جداً، ولكنها مرت في الوقت نفسه بحلقات من الضعف واليأس، لكن اباها نقض العهد الذي بيني وبينه وكان زواجي منه سراً فلم يعلم به أحد، أرجوكم اعتنوا بها وكونوا لها أرحم من قلب أمها التي أرادت البراءة منها، ولتتبرأ مني ودنسي وتعيش مع من تحب بعيداً عن صور الخيانة التي حكتها لها بنفسي ولتسموها براء فهي بريئة من كل شيء بريئة من ذنبي ومن ذنب ابيها ومن ذنب مجتمعها وهي بريئة مني وانا لكم مدينة إلى يوم الدين، ولكم السلام"

ترك الرسالة التي جاءت بطابع غريب فلم تكن تحمل توقيعاً ولا تاريخاً وعرف أنها من أم ليست بسويةٍ بين اضطرابها ويأسها ورحمتها، ظلت الاسئلة تدور برأسه، أسئلة وحسب فلا أجوبة في الافق، ينتظر موعداً جديداً مع الحياة لتفترش له الكلمات بالوعي والظلال لم تكن حياته تنقصها هذه الصدفة الغريبة، كانت الرسالة بمثابة الوثيقة التي قطعت عليها طريق انتشاره للبحث عن ذويها والبحث عن أهلها في مكان آخر، فتاة غريبة بعينين غارقتين بالضعف والهوان، في ظل ضعفها يدفعها بقوة إلى تبينها والمضي في دفعها إلى عمق دائرة الحياة وانتشالها من موتها المؤزر، داهمه شريط ذكريات الذي كانت حياته ساعتين فقط بعدها ترك والدين ورحل مستعجلاً غير قادر على تحمل تبعات ما سيكون ففارق الحياة أو فارق الموت بتعبير اكثر دقة، هذه

فرضية جديدة من فرضية الاندماج في اللاوعي والتذكر بضرورة الخضوع لكل مفارقات الحياة بين منطقها المعود وواقعها اللامنطقي.

تركتُ القلمَ وأخذت نفساً عميقاً اطلقتُهُ في فضاء الغرفة، هناك أكثر من عائق يقف أمامي يحول دون إتمام هذه القصة، وأولها أنني غارق بالعمل ولا وقت لدي لكتابة القصص فضلاً عن مخيلتي بدأت تتعب ولا تستطيع مجاراة المعاني المطروحة في الطريق، بل أنها ليست مطروحة في الطريق فحسب إذ بدأت تداهم البيوت او الأزقة وتدخل الغرف وصالات الانتظار، كما أن قلبي لم يعد قادراً على الاتساع لكل هذه المعاني المهاجرة، بدأت أتصفح موقعي الخاص على الفيس بوك تلاحقني الكثير من طلبات الصداقة المشبوهة التي لا أوافق على أغلبها إن لم تكن واضحة المعالم، وهذا بريد رسائلي الذي ظل يتقلّب وتتناثر من الاشعارات فقد كان مساء الجمعة لتغزوني الرسائل في كل جمعة على هذا النحو لكن مقطعاً ممول أثار انتباهي كان الطفل لقيط ملقى على قارعة الطريق تتخلله الأرجل وتعبث به نظرات الحائرين، شعرت بصدمة كبيرة ولم أستطع ان أكمل الفيديو الذي يعد جريمة لا تغتفر كيف ولا هي تعمدٌ صريح بالقتل فصار لدي دافع كبير في محاكات ذلك الحدث الخطير وكتابته على شكل قصة قصيرة تترجم مأساته الحقيقة.

في الأمس القريب كنت أراهن على قدرتي في مناقشة المواضيع ومحاكاتها كتابياً لكني اليوم اقف مكتوف اليدين تجاه هذا الاندفاع العجيب للموضوعات فأتذكر مقولة النفري العجيبة (إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة)، وهذه هي التجربة الأولى التي أحاول فيها بالدخول إلى مسابقة ادبية اقدم فيها ورقتي القصصية أملاً في ايجاد منفذاً من منافذ النجاة، وفي هذه الفرصة سأحاول أن أستثمرها مع الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

تلاحقني هذه الوثيقة العجيبة أينما حللت في يوم ما وأنا أوضب غرفة أبي وقعت في يدي أوراق قديمة كنت أتفحصها بدقة أتتبع سياقاها بين كتب رسمية وعقود بيع وشراء ووثائق خاصة، كلها لم تلفت انتباهي مثل تلك الرسالة المريبة التي لم يبلغني أبي بها، قرأتها بتأنِ أصبت بخيبة أمل كبيرة عندما قرأت اسمي في داخل الرسالة وسألت حينها ما هو السر وراء إخفاء هذا الامر عني، فأنا أول من ينبغي له معرفة كل شيء خاص، أعدت الورقة إلى مكانها

وكأن شيءً لم يكن في المساء فكرت قليلاً قبل أن أفاتح ابي بما رأيت، وهل يحق لي أن أسميه أباً؟ كانت هذه الأجوبة لا تتأخر كثيراً يأتيني صوت من داخلي ينوب عن أبي في الإجابة كنت أداري خجلي وخوفي أدير الموقف بدراية ومعرفة، لم يكن أبي قادراً على إرغام نفسه بشكل أكبر على إخفاء مزيد من التفاصيل الخاصة عني، لقد أوضح لي بشكل أكبر على إخفاء مزيد من التفاصيل الخاصة عني، لقد أوضح لي بشكل مفصل دون أن ينبس بكلمة ماهي هذه الرسالة وما هي حقيقتها ظلت أساور الشك تلتف حول معصمي لكنه تحدث الي بطريقة لا تقبل الريبة ولا الشك، كان أبي صادقاً رغم أنني كنت أشعر بأن الموقف اقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، ولكن في نهاية المطاف بدأت اشعر بحالة من الركوز النفسي لأنني استطعت من خلال هذه المطالعة مع أبي ان أشبع جوع فضولي وأضع حداً لتلك الخيالات غير المحدودة.

لقد تفتحت في مخيلتي تساؤلات كثيرة عن أمي وأبي وأهلي الحقيقيين عن أصلي فلابد لي من معرفته بشكل جيد، وأضحت القضية واضحة المعالم وصرت بين نارين نار الماضي ونار الحاضر والمستقبل كان ابي متسامحاً لإيجاد سبيل يخرجني من دائرة الضياع التي كنت مسجوناً فيها، يقودني إلى اكثر المناطق التي يحدث فيها (براء) دون ان اعيش دور غير متبرئة عن كل همومي وكل تعاستي وكيف يمكن أن أنسى كل تلك الكلمات الحنونة وذلك الحضن الدافئ الذي احتضنني ليوم بؤسي وشقاقي؟ وعلى مرّ تفاصيل حياتي.

وضعت براء رأسها بين ركبتها واخذت تجهش بالبكاء كانت تبكي بحرقة كبيرة دون ان نعلم ان صوت نحيبها بدأ يتسرب إلى كل الاتجاهات، كان ذلك الصوت دليلاً ينتهي بها فقاد أباها اليها، وضع رأسها بين كفيه وهو يقبله بود، ما هو السقف الذي ينبغي علي ان أصله حتى أبرهن لك بأنك ابنتي الوحيدة بين إخوانك الذي لا (وصلت هنا) يستطيعون العيش دونك، ألست أنا الاولى بهذه الاهمية تمرينها للمجهول؟ وتأكدي انني لم أدخر جهداً من اجل الوصول إلى خيط يوصلني إلى معرفة ابويك لكن لا شيء يمكن ان يفك احترام هذا اللغز، كوني انتِ كما انتِ ولا تحاولي ان تفترضي واقعاً لا يليق بك، عنده ستلبسين ثوب الافتراض بعيداً عنك، فلا تكوني الا حالة تفارق الابيض والاسود إلى الرمادي المبتلى بعذابات عدم الانتماء فلا هو اسود ولا هو أبيض.

ظلت كلماته تحضر في مخيلتي وستبقى إلى عالمه اللامحدود، فأنا بحاجة إلى تلك العين الساحرة والساهرة التي تكشف على ذلك البريق الواضح الذي يفسر صدق عينيه، فأوقف مكفوفة العينين لا أقدر ان اسوق لنفسي اكثر من حجة جديدة لمغادرة واقعي الذي تحلم به فتاة اخرى لم تلد لكنها ظلت موبوءة بالوداع هذا قراري الاخير في موطني الاخير وختامي الاخير فلا نزيف تؤثثه أيدي لاجئة ولا جرح يغرسه طوق الزمن مع خلاصة الفكر، وعنقود الرياحين في لحظة كهذه لتنقش في مخيلتي معارك الرد والحكمة والمعرفة عن أطراس الأسئلة تبحث عني وعن ضياعي عن شرودي المهدد بالوحدة، فأكون انا علامة فارقة من علامات الحياة ولا شيء حولي يدعوني للتفكير بالصدمة، أنا الان انا لست هي فأنا الضمير الحي الذي يراود اسماء الاشارة عن نفسها دون ان يكون له ضمير في ذلك، ان الوحيدة هنا بين اشياء وقدرتي على مقارعة كأسي بنصري.

وامي التي ترقص بين افتراضين، وتعبث بالأيام او الرمال بأصبعين من لحم او عظم، تغني في حفلة صاخبة او تعزف ألم المحبين أليست هذه الاطاحة ضياعاً؟ فهي كذلك قطعاً على الاقل بالنسبة لي فهي في مجهولها المحتم تقف خرساء بين انفاس السطور والجمل، أليست هذه لعنة مؤبدة؟ نعم أنها كذلك ما دام الأمر غير واضح جداً.

هذه صبغة نادرة أنثرها فوق طعم الريح لعلها تصلك في يوم ما وأنت تمارسين تماديك فوق جثةٍ لميت قريب قد أوحشته ضحية جديدة تنتظر الشمس التي لا لون لها، أو أنكِ تحاولين اللعب خارج ميدان الصلاة في آخر طرف من أطراف الحياة، ليتني الان أغفو في حضنك البارد جداً فأنزع فيه هذا الرداء الخفي الذي بقى فيَّ منكِ حتى تكون الاماني صادقة جداً ولا مكان بعد إذ لازدواج نفسي جديد، إنه أبي الذي يصطاد اللحوم النية في قلبه الرحيم النادر الذي يغفو بين يدي في الوقت الذي احتاجك لأغفوا بين يديك أمي التي سأنسى مصطلح اقتلوني بها، لأنها نسيت أن الحياة محضة يجب أن نقتنصها بحرفية عالية دون أن نقع في مطبات اللامنطق واللامعقول لكنني أتساءل للمرة الاخيرة ما هو السبيل الأمثل الذي يمكن أن أجد فيه قادرة على معرفة رقمي الازلي في سجل ضحاياك وهل هناك أحد غير يلوذ بالحياة او الموت، هل يمكن أن تكون رؤيتي السالفة في فجرٍ باردٍ صادقةً وأن التقي بأخٍ نادلٍ في إحدى صالات المدينة؟ عندها شعرت بأنني لستُ طفلةً هذا العالم البائس فأنا العروسة التي تنتظر فرجها المؤجل إلى

الأبد، هذه أسئلة معلقة تطوف في عالم الابرياء تبحث عن الانفاس الملوثة لكنها لا تبحث عن إجابات صادقة وحقيقية.

فالحقيقة تنتهي بأسئلة أخرى دون أن تكون هناك نتيجة حميدة ترسم فوق ربيع القلب زهرةً وياسمين.

2019/1/12

طائر الزقاق القديم

خَرَجَ من البيت وفي يديه قطعةُ خبزٍ ينتِفها بأسنانهِ اللبنيةِ بين الحين والآخر يترنحُ مرحاً، قاصداً اللعبَ مع أقرانه في أزقةِ المحلَّة المكتظةِ بالنفوس، كانت الأصوات متنافرةً، والأحاديثُ متداخلة، والضوضاء تحتدم، والأطفال يتجمهرون في قلب الزقاق لا يُعْرفُ لبأسِهم طرف، مسنات يجلسْنَ أمامَ شرفة دار بسيط عاكفاتٍ على أحاديثَ باليةٍ أمامهن موجٌ متلاطمٌ من الفتيات الصغيرات، حملقَ في المكان فأنكر تخصُّرَ الارضِ تحته، ثم اتجه إلى أقرانه يحاول أن يشاركهم اللعب إلا أنه كلما حاول أن يبحث عن موطأ قدم بين العشرات منهم على أرض أحاديثهم المذعورة مجُّوه بلامبالاتهم فيبقى وحيداً يعكفُ على ممارسةِ هوايتَه الشخصية فيأخذ جانبا بالقرب منهم ثم يستأنف مسلسل الضحك الذي انتهى منه يوم أمس في رحى المكان نفسه راح يضحك على الاطفال وهو ينتف الخبز الذي بيده كلما شعر بأن فاه قد فرغت، وها هو يجدد محاولة الانتماء ويفشل للمرة الثانية ويعود لمواصلة الضحك ولم يرتكبْ جرماً سِوى أنَّه يكره ما يحبون ! وعبثاً يحاول الانتماءَ اليهم أو التلذذ بحلاوة اللعب معهم ليتهشمَ صوتُه الخافتُ الناصع على جبهة أصواتهم المزمجرة المشدودة إلى أوصاف الطيور من البلابل والحمام على اختلاف الاشكال والصور لتظل هلوساتهم منمقةً بريش الطيور ليلَ نهارَ لا حديثَ لديهم في سواها، أما هو فقد كانت الطيور إلى قلبه أشقى من الفئران! فصار بذلك بِدْعاً عنهم، لكن بقاءَ الحال على ما هو عليه وقضاء الطفولة في عزلة وانفراد أمرٌ في غاية الصعوبة فكانت رغبتُه في الانتماء إلى الجماعة أكبرُ من هواية الضحك التي يتربصها البكاء وها هو الآن يبحث عن وسيلةٍ تصلَه بهم وبالرغم من أن أفضل الوسائل أقبحها عنده إلا أنه قرر أن يبتاع لنفسه طيرا من الحمام ليكونَ عضواً في برلمان الصِّبْيَة العام، قفلَ إلى البيت راجعاً فأحضر سبعمائة وخمسين ديناراً وعاد ليقف حيثُ يتجمهر الرواد الصغار وقد وضع في رأسه أنه سيفاتح أحدَهم بشأن الطير الذي يَوَدُّ شراءَه اقترب من الاطفال فوجدهم منهمكين بأحاديثَ طاحنة عن آخرِ أخبار الطيران الجوي وتعابيرهم لا تكاد تُفهمْ فأدرك أنه في موقف لا يحسد عليه، لكنه سرعان ما افترَّ ثغرُه عن ابتسامةٍ رشيقةٍ غَنَّاء فقد رأى أرشد يجلس منفرداً وبين يديه طائر ناصع البياض يمسح على

ظهره بيده كأنما يروض فرساً أصيلاً فاندفع اليه حتى جلس بمقربةٍ منه ثم قال بصوت خافت يعلوه الحذر والخوف:

– هلاَّ بعته لي ؟

فأدار إليه أرشد رأسه ثم أجابه بنبرة هادئة:

– أنصحك أن تغربَ عن وجهي الآن!

– بِعْنِي إياه ..

ولم يكن ينقص أرشد ما يعكر صفوَه فنفخ في وجه الصبي غاضباً:

– ومن أين لك بثمنه ؟ .. أحمق ..

فمدَّ يده إلى جيبه وأخرجها بسبعمائة وخمسين دينارا دونَ أن يَنْبس بكلمة وعندها ترجلت ألوان الجدية والدهاء على مُحييا أرشد فأردف قائلاً وهو يقدم له طير الحمام الناصع أمامه:

– أنظر إليه كم هو رائع وجميل وصحته ممتازة، لك أنْ تطلقه عند آخر البلدة يأتيك سعياً في غضون دقائقَ معدوداتٍ، أبتاعك إياه وبسعر مناسب تنفَّسَ الصبي الصعداء وشعر للمرة الاولى بأنه كيان ذو قيمةٍ وقدر، ثم قال متظاهراً علمَه الواسع في عالم الطيور:

– كم عمره ؟

– فارتجَّ أرشد ضاحكاً لأنه لم يسمعْ فيما مضى أنْ سأل أحدٌ عن عمر الطيور، ثم قال وهو يلفظ آخر شحنات ضحكته:

– تبدو وكأنك لم ترَ طيراً في حياتك من قبل!

احمرت وجنتا الصبي خجلاً وراح يداري خجلَه بطرح سؤالٍ آخرَ وكأنه يريد أنهاء المساومة:

– والآن ... إما أن تبتاعني إياه أو أمضي ؟

– لا لا ..، كيف تمضي، بل أبتاعه لك

– بكم ؟

– سبعمائة وخمسون ديناراً

– أووه ... ولمَ هذا الغلو ؟

– إنه صنفٌ نادر

– وإنْ ؟! فأنا لا أشتريه بأكثرَ من أربعمائة دينار

– لن تحصلَ على طيرٍ بهذا المبلغ

– منْ جدَّ وجدَ

– سبعمائة دينار، ماذا تقول ؟

وأجابه الصبي واثقاً وكأنه قد أمسك بزمام الامور:

– أربعمائة دينار

قبل أن يسري اليأس في جسد البائع قرر أن يحاول محاولته الاخيرة طمعاً في الصفقة:

– ستمائة دينار

– أربعمائة دينار

عنده أدركه اليأس والعجز في الاستيلاء على المبلغ وراح يصرخ في وجه الصبي غيضاً وحرقةً:

– نصحتك أن تغرب عن وجهي!

فاستيقظ الصبي من سبات الاسترخاء الذي تنعَّمَ به إبَّانَ المساومة فترك أرشدَ مذعوراً وراح ليكرر المحاولة ثانيةً ولكن مع باعة جدد فنظر إلى اليمين ووجد الشريكين هيثم ومأمون جالِسَيْنِ متكأينِ على حائط يهمس كلٌّ منهما في أذن الآخر يتحاوران بشأن طائر الحمام الأطلسي الذي انضمَّ يوم أمس إلى سرب الطيور العائد اليهما خطأً ولم يُعرفُ له صاحب، واقترب الصبي منها أكثر حتى استقبلهما وعندها أقلعا عن الهمس، فحدَّق به مأمون وهو يغلي غيضاً حتى صرخ به:

– منذُ متى وأنت تسترق السمعَ تتربص بنا.. ها ؟

فأجاب الصبي وهو يشكو تعاسة حظه منكراً:

– معاذ الله، والله ماسمعت لكما صوتاً

فأفرخ روعُ الاثنين معا، ثمَّ ردَّ مأمون:

إذنْ اذهب إلى مكان أخرَ لا تبقَ هنا

- ولكن....

وقبلَ أن يكمل صرخ هيثم في وجهه:

- ماذا ؟ ماخطبُك ؟

- أودُّ أن أشتري طيرا

فأجاب هيثم وقد هدأ قليلاً هازئاً:

- وهل يُعقلُ أن يملك صغيرٌ مثلك ثمن ريشة من طير؟!

فسارع الصبي ودسَّ يدَه في جيبهِ ملوحاً بسبعمائة وخمسين ديناراً وما أن رأى هيثم النقود حتى اعتدل قائماً لاحقا به مأمون واستنفرا وبدا الاهتمام عليهما واضحا فقالا بدفعةٍ واحدةٍ دون سابق تنظيم:

- نحن نبتاعك أجمل الطيور

ثم أردف مأمون وكأنَّما يقول لصديقه دعه لي:

- لدينا أجمل الطيور وأروعها، حمام بلابل، كناري...

- بل أرغب في طير من الحمام

ثم عاد هيثم ليأخذَ دورَه في عملية البيع:

- لدينا أنواع كثيرة من الحمام " أرافل، زواجل، ودعيات، نجفيات، أطلسيات"...

فقال الصبي بعد أن راقت له التسمية الاخيرة مشخصا:

- أسلطيات

وقهقه الاثنان ثم لم يلبثا حتى عادا إلى جو المساومة للحيلولة دون انهيارها، فقال هيثم:

- تقصد الاطلسيات؟

- بعينها!

- ذكرٌ أم أنثى؟

فتفاجأ بالسؤال لأنه لم يخطط قبل ذلك ماذا سيشتري أوربما كا يعتقد أن الحمام ذكور بلا إناث!، فراح يداري تخبطَه معيناً بنبرة من فكَّرَ وقرَّرَ:

– ذكر، ولكن كم هو الثمن ؟

فتبادل الاثنان النظراتِ حتى بادر هيثم:

– سبعمائة وخمسون ديناراً

– لا أدفع غيرَ أربعمائة دينار

– ولكن بهذا المبلغ اليسير لن تستطيع أن تشتري عُصْفوراً!

– إذن كفًّا عن المماطلة، خمسمائة دينار أو أمضي ! ؟

فلاحت في وجه الاثنين علاماتُ الرضا والقبول ثمَّ انطلق مأمون إلى البيت ليحضرَ الطير دون أن يتفوه بحرف في حين راح هيثم يحدث الصبي عن مواصفات الطير المُباع:

– إنه طير جميل بريشه الاسمر المخضّب بريش أبيضَ في رحى الجناحين وهو يقوى على الطيران لساعات والأهم من هذا كله أنه طير تخشاه القطط

– حقاً؟!

– نعم، إنه إذا كان في مكانٍ تستنفر القطط فيه.

جاء مأمون وفي يده طير كأنه غراب أليف يحميه ريش أسود قاتم وتقوم على رؤوس أصابعه مخالبُ سميكةٌ وما أن رآه الصبي حتى مجَّه وكرهه ولكنه تظاهر بإعجابه به فخشي أن يتراجع عن الصفقة ! فيهزأ به الجميع لذا لا خيار أمامَه سوى الشراء، فأعطاهما النقود وأمسك الطير بكلتا يديه ثم لم يفتأ حتى شكلَ الاطفال حولَه دائرةً جاعلين منه محورَ اهتمامِهم فهذا يبارك والآخر يُهنئ بينما يغمغم ثالثٌ حاسداً ولقيَ هذه العناية المنوع به في قلبه استحساناً عظيماً إذ لم يكن يعتقد أن سيكون في يومٍ من الايام محور العناية والرعاية ! ثمَّ أخَذَ يَشُقُ له طريقاً بين المبتهلين فانسَلَّ من بينهم إلا أنَّ آثار تلك الزوبعة لا تزال تتلاطم من خلفه فتبعه البعض حتى استقلَّ عنهم عند باب الدار، دخل البيت وهو يشبك يديه خلفَ ظهره على الطير الاطلسي البائس وعند الباب رأته أمُّه فأدركتْ أنه يخفي أمراً فقالت له بلهجة من يحقق:

– ماذا هناك ؟

فقال مدارياً حيرته واحمرار وجنتيه:

– أين ؟

– خلف ظهرك

وعلم بأنها ستعرف لا محالة ولابدّ من كشف المستور فلوح بالطير الأسمر دونَ أن ينبس بكلمة:

فأفرغت الأمُّ فاها دهشةً:

– مُنذُ متى وأنت تربي الطيور؟ من أين لكَ هذا؟

فأجابها بصوت شاحبٍ راجياً:

– اشتريته أمي

ثم أردف مندفعاً إلى الحديث مدافعاً عن تصرفه وكأنما يريد أن يبيعه لأمه:

– أسلطي رائع أنظري كم هو جميل يقوى على الطيران لساعات عديدة كما أنه يُرعب القطط

فقالت موبخةً:

– أليس الأجدر بك أن تشتري شيئاً أنفع من هذا ؟

فخيَّمَ الصمت لبرهة فلم يجب وانسلَّ إلى داخل البيت دون أن ينبس بكلمة تاركاً والدته بأرضها ذاهلةً، وسرعان ما أخذ يفكر بطريقةٍ يصنع فيها كوخاً للطير فدخل حجرته وأحضر صندوقاً بلاستيكياً مثقوب الجوانب فوضعه فيه وقلبه على الارض فأصبح بذلك وكأنه قفص لكن هذا العمل البسيط لا يعد سوى حلا مؤقتاً إذ قفز الصبي إلى سطح الدار ليصنعَ كوخاً أخرَ أكثر بهاءً وجمالاً فبعد ساعتين من العمل الشاق انتهى من تكوين كوخٍ خشبي مساحته خمسون سانتيمتراً مربعاً يقوم في وجهه باب ذو كفتين خشبيتين، ثم نزل إلى البيت وصعد بالطير ثانيةً ففتح الباب ودسه في داره الجديدة تاركاً له كوباً فيها ماء وطبقاً مليئاً بالتفاح المثروم ! وبعد أن انتهى من كل هذا واطمئن لحال الطير الذي بدأت علاقتُه به تتطور إيجاباً فنزل وخرج من البيت في ذلك العصر المزدحم فاستقبله الاطفال بعد أن انتشرَ خبر شرائه طيراً أطلسياً من مأمون وهيثم استقبالاً حامياً فبعضهم يهنئ والبعض الآخر يقلد في حين اعتكف آخرون حانقين حاسدين غير أن هذا كله لا يهمه فالمهم عنده أنه أصبح بين ليلة وضحاها ! ذا قيمةٍ عند بقية الأطفال وشعر للمرة الأولى بأنه "بني آدم" ! فراح يستمتع بإحاطتهم له وهو في الوقت نفسه لا يريد أن يتذكرَ وحدتَه الكئيبة، وعند استودعت الشمسُ العابثين على أرض زينها أصيلُها عاد إلى البيت مرحاً فزار الطير واطمئن إلى حاله وبدا

أكثر تعلقاً به، وعند الليل خلد إلى النوم في حجرته تاركاً طيره يقاسي مرارة الوحدة والخوف والجوع فلمَّا كان الصباح أيقظته أمُّه ولم يلبث حتى تذكَّرَ طيره فانتفض من فراشه فعجبت لأمره أمه فقفز إلى سطح الدار ولم يُبالِ لنداء أمه له في وجوب غسل وجهه أولاً ولمَّا وصلَ إلى الكوخ وصار أمامَه وجدَ البابَ مفتوحاً على مصرعيه على أن الباحة الخارجية للكوخ مغطاة بطبقة مبعثرة من الريش الأسمر تجثو على سطحه قطرات الدماء الندية، خفق قلبُه واضطرب وأردك أن مكروهاً قد حلَّ فاقترب من الكوخ وانثنى على ركبتيه مُنحنياً تاركاً بصره يجول في نصف المتر المربع لأكثرَ من دقيقتين في ذهول وتخبط وعبثاً يحولُ أن يجد غير الذكرى ! فلم يرَ شيئاً وبُهتَ وذُعِرَ وأدرك بأن القطة الرقطاء اللعينة قد فعلتْ فعلتها فأصيب بخيبة أملٍ شديدة فتغير ملامحُه وتلفعت بالسواد في ذلك الصباح المشرق وراح يجُرُّ أذيالَ النكسةِ ليتناولَ السلالم إلى داخل الدار خاوياً مجهداً فلما رأته أمُّهُ وقد تغيرت ملامحه أدركتْ أن شيئاً قد حصل فاستفهمت:

– ما بك بني ؟

فغمغمَ بصوتٍ لا يكاد يُسْمَعُ:

– طيري

– ما له ؟

– أكلته القطة!

فأفزعته الأم بضحكة مدوية حتى بغضها في نفسه ثم قالت وهي لا تزال أسيرة ضحكها:

– ذلك الذي يُرْعِبُ القطط ؟!

فتركها دون أن يجيب وهي لا تزال تُتَغِّمُ ضحكتها بصوت يخرمُ أُذُنيه خرما فدخل المطبخ وراح يتناول فطورَه بشهية عجيبة بعد أن قرر العودة إلى الماضي والاعتكافَ على ممارسةِ هوايتَه الشخصية وحيداً.

2010 / 1 / 4

قديسةٌ شَمسُ الليالي

مع حلول المساء اكتظ المنزل بالحضور، امتزجت صيحات الأطفال مع زغاريد النساء وارتفعت الحناجر بالأهازيج والأغاني الشعبية، أغشي المكان بالسعادة والفرح، جئنَ من إحدى الغرف الأربع نسوةٌ يحملنَ فوق رؤوسهن أواني مسطحة عليها قطع الكعك بالسمسم والجوز مخضبة بالشموع المتلألئة، علت صيحات الأطفال فهجموا على القادمات وأخذوا يتقافزون حولهن، وهن لا يتوقفن على إطلاق التغاريد، في الباحة الخارجية للمنزل ارتفع صوت المسجل بالموسيقى الإيقاعية المثيرة فصيّرت الشباب والفتية إلى طوابيرَ منتظمة تقفز وتهبط في اتساق محكم بديع.

في غرفة استقبال الضيوف حيث تجمهر الأعيان والشيوخ، كان السيد إبراهيم والد أمل حاضراً يجلس قبالة صهره الجديد خالد إلى جانب جمهرة من الأقارب والأصدقاء، الجميع كانوا بانتظار المأذون لبدأ مراسيم عقد القران، طال انتظاره وتأخر ساعة عن موعد قدومه، بينما كان الحاضرون يتحدثون وهم منقسمين على جماعات داخل الغرفة الكبيرة أحاديث لا تخرج عن سياق الأوضاع الأمنية الجديدة والتفتيش عن ثغرات ونزوات أخلاقية في سيرة قائد الشرطة الجديد، دخل عبد الوهاب الأخ الأصغر لخالد الغرفةَ وعيناه منتعشتان بالنشوة قال وهو لا يزال عند فوهة الباب: "لقد أتى إنه عند أول الشارع"

ارتفعت الهمهمة وتنفس المنتظرون الصعداء، تلقى خالد التهاني والتبريكات مقدماً احمرت وجنتاه من فرط الخجل ردّ عليهم بكلمات مبعثرة لحظ الجميع ارتباكه على الرغم من قوة شخصيته وفصاحة لسانه ومجالسته الشيوخ، لكن ربما يرجع الخجل إلى كونه تلقى التهاني على مرمى ومسمع عمه إبراهيم والد أمل، بعد لحظات فتح عبد الوهاب الباب دخل المأذون أطل بلحية شقراء وعمامة ناصعة وجلباب عريض كان في عقده السادس أوكلت إليه أغلب القضايا الاجتماعية في المحلة الزواج وعقد القران والطلاق وفض النزاعات المتعلقة بالشريعة بين هذا وذاك حتى صار مستشارهم الأول، أمضى سنواته الأخيرة إماماً وخطيباً في جامع الفرقان وسط البلدة الشعبية، لا تربطه بخالد علاقة قوية وطيدة كما هو الحال مع بقية الشباب كان آخر حوار خاصٍ بينهما منذ حوالي أربع سنوات عندما تصادف خروجهما من الجامع بعد صلاة العشاء

تصافحا وسارا معا في الطريق هنأ خالد بالنجاح والمعدل العالي في السادس الإعدادي، ثم أردف:

- الفرصة الآن بين يديك يابني لتثبت حبك لله ورسوله، لقد أنعم الله عليك ووفقك في الامتحان فلا تنس فضل الله عليك
- لم أفهم شيخنا ماذا تقصد؟
- الحق أنك شاب طيب وحسن السمعة ومن باب الحب والواجب معاً أوجه إليك نصيحة قد لا تخطر ببالك.

خفق قلب خالد وأخذ يهرش رأسه لعله يتذكر أية جناية ثبتت عليه، قال بصوت متهدج كأنه يستنجد:

– . . . تفضل شيخنا

– احذر مما يغضب الله وكن قريباً منه، حاول أن تلتحق بالكليات والمعاهد الإسلامية الهادفة، وابتعد قدر إمكانك عن الدراسات البعيدة عن الغاية التي خلقت من أجلها "العبادة" هناك من الناس من هو بحاجة إليك، لتسهم في نشر تعاليم الله تبارك وتعالى

– معك حق يا شيخنا، لا بد من وضع النقاط على الحروف !

– هل تفكر في تخصص ما؟

– الفلسفة. .

قالها خالد دفعةً واحدةً، انفجر الشيخ في وجهه:

- ماذا؟ هل فقدتَ عقلك؟ حمداً لله أن موعد التقديم على الكليات لم يحن بعد، وأن ثمةَ وقتاً لمراجعة الحسابات

أدرك خالد أن الحديث سيطول دون جدوى كأنه يريد أن ينهي حديثه مع الشيخ:

- على العموم لست واثقاً من الاختيار كل الثقة، لا يزال الوقت مبكراً

رد عليه الشيخ بقوة:

- أية ثقةٍ وأي بطيخ، لا تفسد عقلك بالأفكار والمعتقدات الزائفة، لا فلسفة ولا هم يحزنون

- إن شاء الله مد خالد يده للشيخ صافحه ثم اتجه إلى البيت، صاح الشيخ في أثره:
- لا بد أن تثبت وجودك

قال خالد دون أن يلتفت:

- الله كريم . . !

ألقى الشيخ أبو عبد الله التحية على الحضور، اعتذر على التأخير الذي حصل لأسباب لم يتبينها جيداً، كانت أنفاسه تتلاحق مما يقطع بأنه جاء مسرعاً، جس على الأريكةِ باسطاً السجل الذي بين يديه على الطاولة التي أمامه، أجال بصره بين الحاضرين، كأنه يبحث عن خالد، قال بعد لحظة صمت كأنه يخاطب الجميع:

- نبدأ على بركة الله؟
- أجابوه كلٌ على طريقته، توكل على الله، ابدأ شيخنا ابدأ، على بركة الله، الله يتمم بالخير.

أجلس الشيخ أبو عبد الله خالد إلى يمينه والسيد إبراهيم إلى شماله، وطلب حضور الشهود، تابع الحاضرون المشهد بفضول، في حين ازدادت الحناجر شراسةً في الخارج وهي تلحن الزغاريد والأغاني، أغشى الشيخ يدي السيد إبراهيم وصهره الجديد المتصافحتين بمنديل قاتم، تلى آيةٍ قرآنية كريمةٍ وحديثاً نبوياً شريفاً، ثم التفت إلى السيد إبراهيم قائلاً:

- قل مثلما أقول، زوجتك موكلتي على الصداق المسمى بيننا، ومهر قدره ثلاثة ملايين دينار وأشهد الله وجماعة الحاضرين على ذلك
- زوجتك موكلتي على الصداق المسمى بيننا، ومهر قدره ثلاثة ملايين دينار وأشهد الله وجماعة الحاضرين على ذلك

في تلك اللحظة فقط أحسّ خالد بأنه أبعد ما يكون عن الوهم، غمرته حرارة يد عمه فأحس بصدق الواقع الذي يعيشه، انتابته القشعريرة، وشعر بالنشوة والسعادة، تذكر اليوم العظيم الذي فاتح به أمل بالزواج، إنها اللحظة التي ظلت تراوده طويلاً، كانت جالسةً مع زميلاتها في حديقة الكلية، المكان الذي صارحها بحبه فيه منذ أربع سنوات، تفحص الوجوه عن بعد فوجدها تقلب أوراقاً بين يديها، كانت هادئةً جداً، تجلس إلى جانب زميلتها ضحى، تحادثها بنعومة مفرطة، بقي على بعد أمتار من الجمع ظل قلبه يخفق بشدة، شعر بالغثيان والدوار، كان جسمه يرتعد وأسنانه تصطك، حاول أن يستعيد ما نوى القيام به ليلة أمس، لكن ذاكرته

لم تسعفه، فقد نسي كل التدابير والخطط التي قرر أن يستعين بها، لمفاتحتها بالموضوع، استطاع صاحبه كمال أن يزحزحه عن مكانه بعد، حملة من التشجيع والمؤازرة، فعلى الرغم من كاريزمته وحضوره القوي والفاعل إلا أنه أحس بضعفه وقلة حيلته في تلك اللحظة، فقد ظل كالغريب الأعزل، دخل الحديقة بخطوات متعثرة، اقترب منهن كثيراً، انخفض مستوى الضجيج، وارتفع مستوى القلق، قال بصوت خافت:

- السلام عليكم ..

تلقفنَ التحية بشراهة غريبة، أهلاً، عليكم السلام، أهلا خالد، يا مرحبا، أسرع في تحليل موج الأصوات المتدفقة، والحروف المتناثرة، فتش عن صوتها العذب بين أصواتهن فلم يجده، لم ترد على تحيته، لم تعره اهتماماً، لم تلتفت، ظلتْ ساكنةً هادئة، كأنها في عالم ثانٍ، ازداد ارتباكاً وتعثرت الحروف بشفتيه، ظل يتساءل في حيرة، ترى هل تسرعت؟ هل كان من الضروري قراءة السلام عليهن؟ آه كم أنا مغفل كان علي أن أنتظر أكثر، كان ينبغي أن أصبر وأتحين الفرصة المناسبة، آه لو يرجع الزمان إلى الوراء قليلاً كنت عدلتُ عن كثيرٍ من القرارات الغبية، استطاع أن يتمالك نفسه، وهمّ بأن يقولَ شيئاً قبل أن ينطلق، من بين تجمع الشلة، صوتٌ أنثوي أخّاذك

- أهلاً خالد كيف حالك؟ قرأت لك مقالك الأخير في مجلة الوصال العلمي، لقد أعجبني كثيراً بوركت يداك

أدرك في تلك اللحظة أن ضحى هي الفرج الذي نزل عليه من السماء وحوّله في لحظةٍ ما من رجلٍ بلا هوية إلى كاتبِ مقالاتٍ محترم، ابتسم خالد وغمرته السعادة:

- أهلا ضحى شكراً جزيلاً هذا لطفٌ منك

صمت لحظة ثم أردف بعد أن أدرك أهمية العمل الذي قامت به ضحى وهي تتحدث عن المقالات:

- بعد غدٍ إن شاء الله سيصدر العدد الجديد من المجلة، لي فيه مقال بعنوان (شمس الحُر لا تغيب) آمل أن ينال إعجابكم

أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع بقية الفتيات في حين كان يسترق النظر إلى من سرقت فؤاده، لا تزال أمل غائبة مغيبة لم تكن تأبه بشيء من حولها كأن شيئاً لم يكن، ظلت طوال

الوقت مشغولة بتلك الأوراق المنثورة في حجرها، فكّر في الانتقام من أوراقها بأن يهجم عليها ويحلّق بها في الهواء، أيقن بعد لحظات أنه في موقف لا يُحسد عليه، فكّر بالانسحاب بشكلٍ جاد، لكنه سرعان ما تراجع فلم يرَ مبرراً لمداخلته عبر مصارحتها، أملاً في وضع حد لمسلسل "نهاري ليل وليلي نهار"، ظل يجيب طوال الوقت على استفسارات الطالبات على النشر وعلى النشر وشروطه وكيفية التعامل مع المجلات حتى دقّت ساعة الصفر، لقد طفح به الكيل ولا بد من أن يزحزح "جبل الألب" عن مكانه قليلاً، قال كأنه يريد أن يضع حداً لثرثرتهن:

- على العموم لم تعد المجلات في الجامعة تلبي طموحاتنا لا بد أن نفكر في طريقة أخرى للنشر، أمل .. لحظة من فضلك..

قالها دفعةً واحدةً وبشكل مفاجئ لم يشعر بها حين تلفظ بها، لقد خصّ الحبيبة هذه المرة، حينئذٍ توقفت أمل عن معركتها مع الأوراق ونظرت إليه مستفهمةً:

- . . . نعم؟
- آسف على المقاطعة، أبلغني الأستاذ صبحي أمين المكتبة بأن أبلغك بالحضور إلى المكتبة حالاً، قال إن هناك كتاب معار باسمك، أنا سأكون هناك لأتبين الأمر، اصطحبي ضحى معك إن شئتِ

تركها بينهن كالغريبة أصغر من الموقف الذي تركها عليه، احمرت وجنتاها خجلاً، تحركت بهدوء كأنها لم تتأثر بالأمر، ظل الصمت واجما، تحامل على نفسه وكذب عليها دخل المكتبة دخل وحيداً منتظراً كان متوتراً ينقر على طرف الطاولة بسبابته بشكلٍ عصبي، بعد لحظات دخت أمل برفقة ضحى، إلى المكتبة، طلب منها الجلوس فجلست، الغريب في الأمر أن أمل أدركت ما يجول في خاطر خالد، بل ربما كانت خطوته هذه متوقعة بالنسبة لها، لم تذهب إلى أمين المكتبة، ولم تسل عن الكتاب، جلست ثم أنصتت إليه:

- أنا متأسفٌ جداً كنت مضطراً لفعل ذلك،

لم تعلق ظلت واجمةً ثابتةً ساكنةً (ميتة)، قال بعد لحظة صمت:

- هل أنتِ على علم بما سأقوله؟

لم تنطق، هزت رأسها بالإيجاب، ولكنها ظلت حزينة، قال وكأنه بشر بالجنة:

- حقاً؟! وما هو رأيك؟ . .
- ليس لدي ما أقوله لك، الأمر غاية في السهولة، لكل واحد منا رأي، قد نتفق وقد نختلف، المهم أن يقوم كلٌ منا بدوره الحقيقي

تنهّد قبل أن يقول:

- لم أفهم
- ابداً (واتوا البيوت من أبوابها)

ظلت ضحى طوال الوقت وكأنها تحضر درساً في التنجيم، قال بعد لحظة:

- وهل أنت موافقة؟
- قلت لك ليس لدي ما أقوله

كانت حازمةً في أجوبتها ودقيقةً فيها كأنها في استجوابٍ عسكري، أما هو فقد استطاع أن يجزل لها العبارات، فغداً يبوح بحبه لها وشوقه وولعه بها، الذي كان ولا يزال يعانيه منذ أن رآها، كانت تتلقى إطراءاته لها بروح باردة وعنفوانٍ راكد، أما ضحى التي عاصرت المشهد فكانت تنظر إليه أثناه كلامه نظرة ممزوجة بالإعجاب والتعجب، لم تكن تتوقع يوماً أن يكون خالد رومانسياً إلى هذا الحد، كيف استطاع أن يداري حباً عظيماً في أحشائه طيلة هذه السنين، لم يكن فيه ما يوحي بأنه يدفن في داخله إنساناً مذهلاً.

بعد نحو شهر جرت مراسيم الخطوبة، وافق الجميع على ارتباط الزميلين خالد وأمل، بعد أربع سنوات من الدراسة في كلية الآداب قسم الفلسفة، كانت الحياة في تصور خالد تأخذ طابعاً جديداً حتى الزمان، أصبح في أبهى صوره، عندما استكان فأضفى على روح المرح بهجةً جديدةً.

قال له الشيخ:

- قل مثلما أقول (قبلت الزواج)
- قبلت الزواج

استكمل الشيخ أبو عبد الله مراسيم عقد القران، وبعد نحو شهر، وزعت بطاقات الدعوة للزفاف على الأقارب والأصدقاء، الخميس المقبل وسط ربيع دافئ تهيأ الجميع لذلك اليوم البهيج، كما يحب خالد أن يصفه دائماً، وسط ضجة الأهازيج المتلاطمة والموسيقا المثيرة، نساءً وأطفالا وفتيةً وشباناً وشاباتٍ انطلق ذلك الصوت الأسطوري المذهل، صدحت أم كلثوم في القاعة

بأغنيتها الشهيرة : (أمل حياتي عينيه يا أغلى مني عليه) لم يخفِ الجميع ذهولهم فغلبتهم الحيرة والتساؤل والانزعاج، كان خالد من المعجبين بفن السيدة أم كلثوم، فلم يتصور أحداً فهمه كما فهمته هي، لذلك أصر على حضورها في حفلة زفافه، جلس العريسان على عرش المملكة المنتظرة، كانت أمل غاية في الهدوء والسكينة، لم تكن سعيدةً كسعادة خالد الغامرة هو ديدن النساء، التمنع والكتمان، ألقت نظرة بسيطة على الحضور، دون أن تتلفت وتساءلت عن سر هذا الشعور الذي أجمع عليه الناس هذا اليوم، الكل يرقص ويغني، وفي الجانب الآخر من المكان لحظت العروس جمهرةً من الفتيات تدس كل واحدة منهن رأسها في جيب جارتها، كنَّ منشغلات بهمهمات متواصلة.

رأت ضحى في ختام المشهد، كانت تجلس وسط الفتيات وفي حجرها ابنها الصغير عماد، ضحى تزوجت قبل سنة ونصف، حيّتها بابتسامة رشيقة، تعالت أصوات الشباب وهو يرددون الأغاني بصوتٍ جماعي متناسق، مئات الناس تواجدوا في يوم الفرح، تساءلت هل يستحق الزواج كل هذه الطقوس المتداخلة، همت بأن تسأل خالد، لكنها تراجعت عن الفكرة، ظلت شاحبةً وكأنها في طريقها إلى عالم مجهول، لحظ خالد ارتباكها فأراد أن يفعل شيئاً، اقترب برأسه من رأسها، أراد أن يهمس في أذنها شيئاً، أثناء ذلك تنازعه شعور عارم، وفكر بتقبيل خديها المتوردين، كانت تلعق شفتها طوال الوقت تحت تأثير الخجل، حتى اعتلاهما احمرار أخاذ جذب قلبه نحوها تحركت فيه المشاعر قرر أن يقتص منها الآن على مرأة ومسمع الجميع، أنها سبب الدمار الذي لحق به طيلة السنوات الأخيرة، لقد سببت له المتاعب الكثيرة، آه يا أمل ستدفعين ثمن كل جرعة ألم أسقيتنيها في حبك، تذكر العرس والأجواء والحضور والأصدقاء فعزف عن فكرة القبلة وأرجأها إلى أجل مسمى، نسي الغاية التي دفعته لأن يقترب منها، فشعر بالإحراج، شفتاها أنستاه الدنيا، تدارك الموقف فسارع يهمس في أذنها مداعباً:

- هل أنتِ جائعة؟

لم تجبه، حيّته بابتسامة، ونكست رأسها بخجل استطاع أن ينتشلها من واقعها الراكد، التفتت إليه ورشقته بسهام عينيها، ضحكت بعنفوان طفولي، قبل أن تهمس في أذنه:

- الجوع في العرس شبع

ضحك بصوتٍ عالٍ، عقب سماع ردها، تذكر الناس فكتم ضحكته بسعال مفتعل، فتفاجأ من روحها المرحة، اكتظت جمجمته بالأفكار فكّر بالمداعبة، والهمس مجدداً، لكنه، سرعان ما تراجع عن الفكرة، لكي لا يفسد نشوة الحب والمرح بينهما، تأملها وكأنه منفرد بها، وهو لا يزال ثملاً بخمر ألحاظها، همس في الخفاء دون أن يسمعه أحد:

(ابتديت دلوأتي بس أحب عمري، ابتديت دلوأتي اخاف اخاف لا العمر يجري)،

ظلت الأفراح في تصاعد دبكات وعزف وتهانٍ، شعر خالد بتلك اللحظة بأنه يتسيد العالم، لا شيء يكدر عليه فرحه وسعادته الغامرة، لا أحد يمكن أن يوقظه من رؤياه المذهلة، لا أحد يستطيع أن يزحزحه عن أمل حياته، كان يتأملها بين الحين والآخر، في ختام العرس الجماهيري المهيب، نهض العريسان ليتركا قاعة الأفراح إلى عش الزوجية، كانت الجموع قد تجمهرت حولهما اشتعلت الحناجر بالهتافات والأهازيج والأغاني أمسكت أمل بيد عريسها وتقدما إلى خارج القاعة في موكبٍ أسطوري كبير، في الخارج طلب المصور أن يفسح المجال أمام العريسين كي يتسنى له التقاط بعض الصور، تزحزحت الجموع في حين استمرت الأفراح والزغاريد، كل الحاضرين شاركوا في إنجاح الحفل، كلٌ حسب طريقته، رقص من رقص وغنى من غنى وصفق من صفق.

وقف الخال الأصغر لخالد في الباحة الخارجية أراد أن يعبر عن سعادته بطريقته الخاصة، صوب بندقيته إلى السماء دوت ثلاث إطلاقات، ازداد حماس الحاضرين، وردت عليه النساء بموجة من الزغاريد شعر بنشوة الفعل، أراد أن يستأنف الرمي ولكن بطريقة متطورة، اكتفى بحمل البندقية بيده اليمنى، وضع أصبع على الزناد أراد أن يطلق ما تبقى من الرصاص بكبسة واحدة على الزناد، أطلق الرصاص في الهواء، علت الزغاريد فاختل توازنه، ارتعد وارتبك، لكن الرصاص لا يزال ينبثق بشراهة، وأطبق الإصبع على الزناد تماماً، الرصاص منهمر، لم يعد يسيطر على البندقية الثائرة المتمردة لا زال يطبق على الزناد صرخ به الأعيان والشيوخ وحذروه لكنه لم يسمع شيئاً صوت الرصاص ابتلع كل الأصوات، توقفت الزغاريد صرخ الأطفال، انثنت البندقية، زحف الرصاص نحو المتجمهرين حول العريسين، انطلقت رصاصة خاطفة، استقرت في جبين العروس، انبثق السائل اللزج، سالت الخيوط الحمراء على الفستان الناصع، أحست بالدوار ارتعشت تراءت صور الحياة أمام عينيها، حتى حجبت كتل الظلام الزاحفة الرؤية، لم تعد ترى شيئاً لم تعد تسمع شيئاً انسلت يدها بسلاسة من يد العريس سقطت على الأرض، ماتت،

ماتت قبل أن يجيبوها على التساؤلات الكثيرة التي شغلت بالها طيلة ثلاثة وعشرين سنة، لم تستطع أن تجد حلولاً لطائفة من القضايا المحيرة، ماتت دون أن يصدق أحد، ما حدث توقف الرصاص بعد أن نفد، وكان من بين الضحايا طفلٌ في الخامسة، وثلاثة نساء وجرح اثنتين، لم يتمكنوا من إسعاف العروس لأن أمل منذ اللحظة الأولى فقدت كل أملٍ لها بالحياة، فقد انطفأت في الحال، ظل خالد يتابع المشهد بذهول غريب إنه لم ينفعل، لم ينحنِ على أمل عندما سقطت، لم يكن يخشى الرصاص لم يأبه بشيء ربما لأن لم يكن يصدق ما يحدث بالفعل، أدرك الموقف بعد ثلاثة أيام، بعد أن وجد الناس يقدمون له التعازي، وطئت خده البريء أول دمعة أدرك الموقف بعد أن استكان أساه، فانهمرت الدموع وظل يندب تعاسة حظه، ظل طوال تلك الفترة وحيداً تلفعت حياته باليأس والتعاسة، بعد نحو شهر رآها في منامه، تحدثت إليه، شدت من أزره، كانت أجمل من ذي قبل، ودعته بصوت كلثومي كئيب:

يا حبيبي كلُّ شيء بقضاااااااء

ما بأيدينا خلقنا تعساااااء

ربما تجمعنا أقدارنا

ذات يومٍ بعدما عز القاء

فإذا أنكر خلٌّ خله

وتلاقينا لقاء الغرباااااء

ومضى كل إلى غايته

لا تقل شئنا فإن الحظ شاااااء

2011 / 3 / 17

مَخَاضٌ تَحْتَ سَعْفِ النُّوْرِ

أتساءلُ بحيرةٍ وعناد، كيف يمكنني أن أنتقل إلى عالمي الجديد وأنا محاط بالخطوط الحمر؟ تحتفي بي كل شموع الكون ببرود وتراخٍ، وإلى متى ستظل الحواجز الكونكريتية والسواتر الترابية والأسلاك الشائكة تلتف حول خاصرتي؟ متى ستحينُ فرصة تجعلني أقود سفينة أيامي بنفسي؟ لأبحر بها في بحر لا يخشى سطوة البراكين على عرائسه، ذلك البحر الذي يجعلني أطوف خارج حدود ابتهاجي، أنتقل إلى المكان الذي أجدني فيه سيداً لأحلامي التي تلونت بفصول الخيبة، أيُّ قدرٍ هذا الذي يقرن سعادتي بسلكٍ شائك، أو نهرٍ حائر لا يعرف أن يصنع حداً لخصام ضفتيه، وفي بعض الأحيان تجتاحني أفكار مضحكة، لكن تلك الضحكات كانت ممزوجةً بالدموع وسرعان ما تخنقها الأماني بألم في كل زوايا الوجدان، ولماذا تحاول الفيزياء معاداتي في هذه الطريقة؟ فأنا عاشقٌ عظيم ولا يمكن أن أنصت لقوانينها الباردة التي لا تحاول الاحتكاك بدفء اشتياقي.

كم تكررت تلك المحاولات البائسة بعيداً عن ذلك الشقف الخانق الذي يُطبق بصمته على خفايا الروح، وهذا النهر العنيد الذي يردد صدى الوداع بين ضفتين تحاولان انتزاعه بقوة، غالباً ما كنت أترك جسدي يمارس أنشطته الحياتية بتقريرية وبرود، بينما أسافر أنا وحيداً بلا أمتعةٍ ولا ضجيج، ولا تصاريح أمنيةٍ، أقف هناك بين الأزقة الضيقة متخلياً عن تلك الكثبان الفانية، أتحسس ذلك الصمت المريب ذلك الترقب المخيف، أتنفس تلك الأرواح النيئة، التي استطاعت أن تكونَ نياشينَ غبيةً لمدافعَ ذكيةٍ جداً، وإلى أين يمكنني الهروب عن تلك الوجوه الشاحبة التي تلاحقني من زقاقٍ إلى آخر تلك العيون الغائرة والحائرة في الوقت ذاته، وأيّ خلاصٍ أسود ذلك الذي تشتعل به النفوس، إنها تهرب من الموت بحثاً عن الموت.

تقترب طفلة صغيرة تحملُ بين يديها إناءً فيه حساء الحريرة، كانت تمشي بحذرٍ شديد وعيناها مشدودتان إلى الإناء، تخطو بهدوء وحذر، وكأنها تسير على حبلٍ ربط بين جبلين، كنت أشاهد البخار الذي يتصاعد من الإناء كزوبعة وغيمةٍ بلا مطر، توقفتْ عند عتبة الباب برجلها كأنها توقظه من نومةٍ أبديةٍ قادمة، ركلته مراتٍ عديدة، قبل أن تضع الإناء جانباً وتطرق الباب بقوةٍ بعد لحظات خرج رجلٌ مسنٌ بابتسامةٍ عريضة حيا الطفلة بمسحةٍ على رأسها وأخذ منها الإناء، كنت أتابع خطوات تلك الطفلة وهي ترتدي حذاءً أكبر من حجم قدميها، إنها العظمة الإلهية التي تنفخ في الأرواح الأمينة الكريمة، فليس هناك أروع ولا أعظم من قلبٍ يحبُّ في زمن الكراهية، ويصفح في زمن الغدر، ويكرم في زمن الجوع والعوز، هذه القلوب المغرمة بنعيم الأحلام الجريئة، تنام ببطء ورويّ وسلام، لكن في أرضٍ لا وجود فيها للسلام.

مع احتلاك الظلام يبدأ برنامج يومي من فصول الخوف والرعب، تغلق الأبواب وتوصد النوافذ ليحاول الإنسان أن يجد فيها موطئاً آمناً في أرض موبوءة بالخراب، إن هذا الهدوء الحذر يخيفني جداً، يرعبني ويدهشني، فالناس هنا يحاولون اختزال العالم بأمنيةٍ أو أمنيتين، وكم هو مؤسف ومؤلم أن أجد نفسي محكوماً بالحيرة والخيبة، وها هم أمامي يعيشون تناقص الفرص الحياتية، كانوا يشعرون بأن هناك قوةً تحاول أن تزرعهم بأرضهم التي شاركت في جريمة حصارهم، في هذه البقعة من العالم الزاخر بفصول اللهو والعبث والتراخي، لا يجد الإنسان أكثر من كسرة خبزٍ بائتة يلوكها بلا وعيٍ ولا إرادة، لا يشاركه أحدٌ في البحث عن مفتاح الفرج، ليحاول أن يبحث وحده في صناديق مقفلةٍ تحتاج إلى مفاتيح أخرى، فالمصير هنا مجهول موبوء بالحرمان والطغيان والكتمان، يجب أن تعيش الحالة بنفسك وتبحث عن الحلول بنفسك، لتؤسس أنماطاً حياتيةً جديدة، فكل شيءٍ في هذه الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة، أنفاساً كانت مخبأةً لأيامٍ عصيبةٍ كهذه، فالحرب تزحف على الوجوه، والجدران والأبنية القديمة والمآذن الشاهقة، فكيف يمكن أن يكون هناك شبر واحد في أرضٍ محروقةٍ وفق المصطلحات العسكرية، يمكنه أن ينمو بتناغمٍ وحنوٍ لزهرةٍ بيضاء ناصعة.

اكتشفتُ بعد حين أنني مرهونٌ إلى صباحاتٍ تتخلى عن خيوط الشمس، لتنسج أحلامها من خيوط الظلام، يتناهى إليّ صوتها الحنون، كانت تمشي بهدوءٍ وغنج كأنها تريد أن تطيل عمر الفراق، لم أكن أعلم أنني قادر على الطيران نحو أحلامي، اقتربتْ مني واقتربتُ منها، واتضحت ملامحها أكثر، توقفتُ لبرهةٍ أحسستُ برهبةٍ كبيرة، هل هذه هي؟ أم أنني أقف أمام امرأةٍ أخرى؟ لقد شحبَ وجهها وفقد كثيراً من بريقه، وضعت يدها في يدي، وأخذت تنظر إليّ بأمان:

– لقد أطلتَ الغياب يا حبيبي . . .

صوتها المحفور في وجداني يتغير في صمتٍ وعذاب، لم أكد أفق من صدمتي بها حتى شاهدت دمعتها العذبة تجتاح خدها، إنها تجهش بالبكاء وليس أمامي سوى القليل من الإيمان بالرويّة، كنتُ أحس بدفء دموعها وهي تغسل صدري وقلبي من الكلمات التي كنت قد أعددتها في مواساتها، وماذا عساني أن أقول إن لم يكن هناك متسع للكلام، في مثل هذا اليوم من العام الماضي، كنت أقرب منها جداً، وأعزف لها آخر ما كتبُ من الأشعار في حبها، ذلك هو الدفء الحقيقي الذي يجعلني دوماً في مأمنٍ من التيه والغياب، وكم آنستني تلك البسمة اليافعة التي رأيتها تنمو على شفتيها عندما وضعت في إصبعها حلقة الخطوبة، أين ذلك البهاء الذي يصنع من الرجال شعراءَ بالقوة والفعل، الحبُّ ليس سوى صدىً مدهشٌ لا يقف عند حدود الخيبة، هو

ذلك التفاعل الذي يغذي الروح بما تشتهي من عطفٍ وحنانٍ وريادة، لقد اتسعت رؤياي اليوم إلى الدرجة التي جعلتني أبحث عن العبارة فلا أجد إلا زوبعتها، وكل ما يحيط بي مبهمٌ ولم يستطع أحدٌ معرفةَ الحال التي تلم بي سوى النفري الذي جسّد عبارته الشهيرة بعمق وصدق، وها هي الفرص تتناقص أمامي، لكنها تولد من جديد لكن بصعوبةٍ أكبر، الحبّ في أرضٍ تتحينُ فرص الحرب يكون ضرباً من الجنون والغباء معاً، الأزهار التي تحضنها جنائن العاشقين تنتظرها رصاصة طائشة تمرّ مرور الكرام نحو صدرٍ عارٍ بدلاً من يدٍ عاشقةٍ تقطفها في يومٍ ربيعيٍّ بهيج، إنني مثقلٌ بالأوهام والأحلام في عالمٍ محاط بالحقائق المدهشة.

ها هي المدينةُ تحاول أن تجد طرف خيطٍ يمكن أن ينتهي بعصفورٍ أعزب يرنو إلى أغصان الحياة التي يمكن أن تُخلّد له عِشاً، مدينةٌ متعبةٌ ومنهكةٌ، في فجرها يضطر الملايين للنوم، بصمتٍ وتساؤل، ماذا بعد؟ إن مدينتي هذه تكتب لنا يومياً أحداثها الدامية على وجه السماء بدماء الشهداء الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء، في كفها الأيسر ينام القمر، بينما تستيقظ الشمس في كفها الأيمن، عدت أخاطب نفسي مثل مجنونٍ يريد أن يكون عاقلاً في وقتٍ لا يصلح إلا للجنون، ترى متى ستكون هنالك فرصة للفهم والإدراك فتستقر النفوس ولا يغرنها طوفان الخراب، كنتُ أشاهد الوجوه وهي تبدو وكأنها وليدة اللحظة تتقاطر منها البهجة واللهفة، فعلى الرغم من تلك السطوة المميتة، فإن الأمل في الحياة يبدأ من جديد، كل شيءٍ يحاول أن يكون في أبهى صوره الانفعالية والنفسية، والنهر يعزف صخبه للنجوم التي ظلت تشاهد الأمنيات المتضادة، بين حياةٍ وموت، ويأسٍ وأمل وحنين واغتراب.

إنني أحدث نفسي كثيراً وعندما تمل نفسي من حديثي أحاول أن أصارح القمر في جذوة إشراقه واحتراقه، أستلقي في ليلة صيفية مرهقة أشاهد القمر الذي يعرفني معرفةً شخصية، هو يراني ويراها، وتلك الأضواء التي ينثرها عليّ بهدوء وروية، تتلقاها حبيبتي بصمتها المؤجل إلى حيث نكون، مرةً أخرى أتساءل لعلني أجد حلاً لبعض أسئلتي التي تتراكم يوماً بعد آخر، وأين يمكن أن تكون الآن؟ في أي سطر من سطور القدر؟ أنظر إلى القمر فأطيل النظر فيه، لا أعرف لماذا أرى صورتها في وجه القمر الباسم، تجيبني بأحرفها المدللة التي تكتسي صوت الاشتياق.

- ماذا عساني أن أفعل؟ وليس بيني وبينك إلا شريط افتتاح ينتظر مقصاً محظوظاً، إنني أراك هناك في الصفحة الأولى من وجه القمر، وأنت تملئ عليّ كياني كل يوم، ووجهك المرتل بالنور، ينتشل بقايا القمر في يوم عرسه الأحلى، وتلك اللهفة التي تلمع في

عينيك لا تزال بوصلة سعادتي وشقائي، فلا أستطيع أن أقول لك اليوم إنني أحبك لأنني أحبك جداً.

- آهٍ كم أطلقت حزماً من الأيام أراوح في مكاني، لا أعرف كيف أصل إليك فأنا لا أحب السياسة لأنك زرعتي في قلبي بستاناً من الزهور، أعود في كل لحظةٍ تلدني فيها مواجعي، أرنو إلى بصيص من حرب، تذكري أنني أنتظر الحرب بفارغ الصبر فهي المحك الذي يعتصر القلوب، كما أنها الفرصة الوحيدة التي يجب علي اقتناصها لألتقي بك، والطريق الوحيد الذي يجب أن أمرّ منه وصولاً إليكِ.
- لماذا لا يكون هناك أملٌ يُمَكِّنُنا من الاحتفاء بالحرب؟ أليست هي سبيلنا الوحيد للحب والاغتراب والتماهي والاشتياق؟ إنها حرب القلوب والضمائر معاً، أنا وأنت لازلنا بانتظارها، فهي السبب الرئيس الذي فرقنا ولن يكون هناك سبب مختلف ليجمع شملنا من جديد.

كنتُ أقرأ حروفها على وجه القمر، تلاحقني أنفاسها وتجتاحني كلماتها التي تحوم حول الحب على وجه التحديد، أستشف حزنها البارد بين همسات الكلام، تحاصرني بذلك الحضور المانع وكأني أعانقها في ليلةٍ تسبق موسم الهجرة بقليل.

تعاود صدمتي بالناس تتحفز لوعيها المثير، إنهم يمارسون حياتهم بتهورٍ كبير، كما لو إنهم يسعون إلى تناسي جراحهم بسرعةٍ وعناد، لا يضعون حداً لابتهاجهم المفتعل، فالحرمان يروض النفوس على ما تكره، لكنها ستنطلق في فضاء حياتي مفتوح، إذا ما كشف عنها نقاب السلطة، أو التسلط، عندما أتذكر حديثها عن البؤس الذي يعيشه الناس في الشطر الثاني للمدينة وأرى بعيني ما لم تره من قبل أدرك بأنني أعيش في مدينةٍ يشطرها النهر إلى مدينتين، لكلِ مدينةٍ عرفها الخاص، لعل ذلك من سخريات القدر أن نكون إزاء نهرٍ يفلق نفسه بين طعم الموت وطعم الحياة.

سمعت صوت الهاتف في وقتٍ متأخر من الليلة الماضية، لم أتفاجأ عندما رأيت رقم هاتفها يطرق باب هواجسي، لقد اعتدت على مكالماتها في هذا الوقت المتأخر، كانت تبحث عني عندما تنضج فرصةُ آمنةٌ من فرص البوح، ومهما يكن من أمر فإن تلك اللحظة التي تعتصر القلب في عز اختناقه، فإن الظلال المحيطة ملطخةً على الجدران، وذلك العالم المخيف الذي يرسم لها حدود البسمة، أختار لون عينيها السوداوين في ظلام دامس كان ضوء الهاتف المحمول أنقى سطور أمله: (لماذا جعلتني أحبك؟) قالتها بضعف كبير في وقتٍ تتناهى إلى سمعي عبر الهاتف إطلاقات نارية كثيفة، سألتها بخوف: ما الذي يحدث؟

- كنت أظن أن حبك لن يكون إلا سلوتي وهناي، لكنني بتُّ أشعر أن الحياة بلا حب يمكن لها أن تكون أسعد !

كانت يائسةً محطمة:

- هل يمكن لمئات الأمتار أن تغير مفاهيم الحب بداخلك؟ يا حبيبتي إنه الهواء الطلق فقط! أنا هنا في الجهة المقابلة منك أرنو إليك باشتياق مستمر، أتنفسك أحياناً، وأنا أمسد تلك البيوت المتشعبة بعيني التي أرهقتها أشعة البعد، في هذا الليل الباسم يمكنني أن أرى ضوء هاتفك لكنك أخفيته عني خوفاً من اللبس وتركتي ضوء القلب مسفوحاً على مصرعيه، أنا هنا يا حبيبتي لم أزل أعيش اللحظة معك أتنفس شذاك وأتغنى بهواك.
- ما يفصلني عنك لا يمكن قياسه بالأمتار والمسافات، فالأمتار التي بيننا لم تعد تحظى بمصداقية وافية لقياس دقتها، فهي أقسى من تصوراتنا وأبعد من تخيلاتنا، إنها المسافة بين الحقيقة والزيف، بين البؤرة والامتداد، إنها مسافة عامرة بالوحشة والغربة والاختناق، وهي مسافةٌ كفيلةٌ بأن تجعلك ترى الألوان بطريقةٍ لا تتوافق مع الذين يرونها من حولك، فهو عمى القلب والبصيرة.
- لكنني أحبك، بعيداً عن هذه القياسات الميتة، قريباً جداً من مسافات قلبي.
- وأنا أحس بالعدالة عندما أفرغ في قلبي جزءاً يسيراً من سنن جحيمي، إنك تطالبني بالحب في وقت فقد الإنسان أسمى قيم حياته، فالحب مصطلح موحش أُريد له أن يكون مقبولاً على أرض النار فقامت الراء بين حرفين متناغمين فكان ما كان.

تتوالى الأخبار عن النار التي ستأكل الأعمار، أو النور الذي سيبهج الأبصار، أقف عند حافة الشرفة المطلة على ذلك المنظر المبهم، وذلك الشطر اليتيم، أستمع إلى البرق والرعد الذي لا يصطحب سوى البراميل المتفجرة، يقف هاتفي متلهفاً لأثيرها، إنها حبيبتي تلبس لباس الحرب وتنتزع قصائد الحب، يوماً بعد آخر أجدني أتابع التلفاز بشغف كبير، أبحث عن حقيقةٍ لا تريد أن تكون، المعركة تقترب من الأماكن والمناطق الأخيرة من الساحل، ولكن كيف سأوضح لهم أن حبيبتي هناك، أظل أقلب صفحات التلفاز، أبحث عن حربٍ باردة تمسد الحياة بصمتها المحبوب، في بيتي لم يعد أحد يهتم لنشرات الأخبار، فلم يعد هناك ما يشغلهم فيها، فبعد أن ظلوا لسنواتٍ يلازمهم الراديو والأثير، أصبح التلفاز عندهم أمراً ثانوياً، وذلك لأنه لم يعد يعرض إلا ما هو ثانوي في نظرهم، إنها سنن الحياة الخانقة التي يلبسها البشر بشراهةٍ كبيرة، عندما ينام على تخمة مفرطة وليس في جوف أخيه ما يشغله، وعندما تتغير الأولويات والاهتمامات والمناهج والأسس والقيم، أقف مكتوف

اليدين أحاول جاهداً أن أفهم ما يحدث حولي من تهورٍ أخلاقي عارم، ولن أنسى ما قاله أحد الأقرباء معلقاً على حقيقة ما يحدث ببرود قاتل: (الحرب شأنهم الذي كان شأننا)، فلم أعد أصدق أحداً يظهر حبه ووده للمدينة بشقيها ونهريها وضفتيها، وبقيت أنا أراقب الحرب من بعيد، لكنني أنصت لهمهمات الرعب التي تنمو في الغرف المظلمة.

الحرب جرةٌ من جرار القدر الفارغة تنتظر من يملأها بالدم، فالأخبار تتوالى عن اقتراب شظايا الحرب، وليس هناك من سبيل يمكن أن يثبط عزيمة الحرب إلا بسطوة الحب، كان البيت الواحد يزدحم بعدد من العوائل الهاربة والتي تحاول أن تؤجل لحظة مخاضها، لم تكن مشكلة الجوع فاعلة أمام مشكلة الموت بفعل القصف العشوائي والصواريخ الموجهة، أو الموت على أيدٍ غادرة، كان الجميع يحاول أن يستلهم طرائق مختلفةً لطرد نذير الموت، أولها هو التسليم بأن الموت واقع لا محالة، فهم ينتظرون لحظة فاصلة قد تودي بحياتهم جميعاً، لم يكن ذلك يأساً بقدر ما هو فهم صادق لماهية الحياة في تلك اللحظة العصيبة.

استيقظت البلدة على صوت إطلاقات نارية كثيفة، تتابعت بعد ذلك ضربات متكررة لصواريخ قريبة جداً، علت صرخات الأطفال ولم يعد يسمع من الحرب إلا الضجيج، كانوا يرقدون جميعاً في بيتٍ صغيرٍ لا تتجاوز مساحته الكلية المائة متر، نوافذه عالية مطلة على الأزقة البعيدة، ظلوا متلازمين متآزرين كأنهم يترقبون لحظةٍ ما، أرواحهم متلاصقة قبل أجسادهم، في هذه اللحظة بالذات تصغر الحياة كثيراً في عيون الأطفال، فالحرب لا تقوم إلا على بقايا الألعاب والأمتعة الخاصة، سمعوا أصوات ونداءات في الخارج لكنهم ظلوا واجمين لم يحركوا ساكناً، لم يتبينوا حقيقة ما يحدث في الخارج، الرعب يزحف على الوجوه والقلوب، في تلك اللحظة العصيبة تتقلص الأماني وتبرد مسافات العمر، فالجميع يترقب وينتظر، كلٌ ينتظر ما خلق لأجله، الموت يتابع المشهد من بعيد، يقترب صوتٌ مرعب، ربما تكون قذيفة هاون تم إطلاقها من بعيد، تبحث عمّا تقله إلى عالمه المؤجل، كان العويل مرعباً يتزايد لحظةً بلحظة بحيادية وتمهل، وتزداد معه الأرواح خفةً ورعباً، كأنها تشنقُ في حبل طويل لا يتم إطلاق سراحها إلا بلحظة انطفائه وانفجاره، عندها يتنفسون الصعداء، ولا يضطرون للتفكير في الصدر العاري الذي استقبل القذيفة.

مضت ليلةٌ كاملة كان القصف قد هدأ وخفت حدة المعارك، وبدأت الحياة تستعيد حيويتها بعناد وتحدٍ، أثناء الليل انخفض مستوى الخوف، فأمست هناك فرصة للكثيرين في التمازح والتناغم طرداً لشبح الحرب والعذاب المتكرر، وبحثا عن سبلٍ ذكية لبث الحياة من جديد، فدارت أحاديث استشرافية تأويلية، تحاول أن تتأنق بما سيكون أو سيحدث، تتوالى

الأيام والليالي وتتجاذبهم فرص الحياة والموت، بين رعيل الأماني الباردة والخوف الدافئ، الذي ينخرُ القلوب والأفئدة، كل شيء بدأ ينفد، حتى الصبر فلم يتبق إلا البصيص منه، في تلك الأزمة المريرة كانت المؤن والأغذية تتقلص رغم انفتاح الشهية ورغم شراهة البطون، والخطر يداهم الجميع من النواحي كلها.

انقطعت عني أخبارها فأنا أتغذى على الأخبار الخاصة التي تصلني منها، أما ما يقال وينقل من أخبارٍ عبر التلفاز فهو يثير غضبي وشفقي أكثر من إثارة اهتمامي، تُرى أيّ مصيرٍ ينتظرها الآن؟ لقد أرسلت لها جملة من الرسائل إلى هاتفها الذي كان موصداً بوجه الحياة، لكنها لم تحاول أن تطمأنني على حالها، يتضاعف قلقي ساعةً بعد ساعة، وليس هناك من أمل يمكن له أن يوقف زحف مخاوفي، بدأت وساوسي تفترض طقوساً مختلفاً من المآسي المرة، وأتساءل في كل مرةٍ يتصاعد فيها وعي جنوني، ماذا حدث الآن؟ هل ستنجو من المحرقة أم أنها . . . ؟ وسرعان ما تتجلى صور الموت أمامي، أحاول أن أحيد عنها أبحث عن أمل جديد للحياة، لكنني لم أعد أرى وأنا أحلق في فضاءاتهم غير أعمدة الدخان لجثث محروقة، تصعد إلى السماء بحنوٍ وتراخٍ، وها أنا الآن أمارس دوري البائس أشاهدها من بعيد وهي تصارع القدر، وحيدةً لا يواسيها أحد، تركتها في مهب الريح، تشحذ همتها من ذلك الفجر الصادم الذي يؤذن فيه مؤذن الحرب، معلناً انطلاقها لتسير فوق جثث الأطفال والنساء، ولا تقف إلا على الكتل الكونكريتية التي تتوسد الجماجم والصدور العارية، إن بيني وبينها شعاعاً أخضر كاذباً يؤملني بالوصول، ويخدعني عند أول فرصةٍ صادقة للحرب، مريني بما هو أقسى وأمر، فأنا الآن إرشيفٌ تتصاعد منه أبخرة طازجة، لا يسعه إلا أن يكون خبراً ضيقاً من أخبار الساعة التاسعة، التي تزدحم فيها العناوين والمضامين، طرباً للحرب، وقرباناً لوصايا الجنود التي لم تكتب بعد.

كانت تنظر إلى أخيها الصغير بعينين لامعتين، تحاول أن تجد تفسيراً لعينيه الهاربتين نحو المجهول، الطفل الصغير يلوك قطعة خبزٍ بصمت، تحدّقه باستمرار لتنزلق من عينها دمعة دافئة، كان جالساً في حجر أبيه لا يعرف المعنى الحقيقي للحرب، ولا يقيم وزناً لما يحدث، إنه حزينٌ جداً لأنه لم يستطع الخروج من البيت منذ ثلاثة أيام، كما أنه حزين لأنه فقد كثيراً من أصدقاء المحلة القديمة بين هاربٍ وخائف وقتيل، تكررت المرات التي تنام فيها العائلة تحت سقف سلم البيت، لم يكن يستطيع تفسير تلك الزحمة وذلك التدافع وما هو الداعي الذي دفع عائلته إلى هذا الاختناق، ولضيق المكان اعتاد على أن ينام على صدر أبيه، فالبيت متخم بالعوائل الهاربة من جحيم الموت، لا أحد يعرف كيف ستكون نهاية المشهد الذي ينتظره، ظل الطفل يراقب المكان بحذر لافت، وهي تطالعه وتحاول أن تنتزع

من عينه خيوط الخوف، تداهمه بابتسامةٍ مصطنعة، وتستحثه للضحك، لكنه لم يبالِ ظل واجماً، يُحدقُ فيها ببرود مخيف، كانت الإطلاقات النارية على أشدها، يتخللها دوي انفجارات قوية، تهدأ الحال قليلاً ثم تعود أسخن من ذي قبل، يحاولون الخروج من ذلك الوسط المظلم إلى قبوٍ أشد ظلمةً، خفتَ ضجيج الحرب، لكن، الحر بدأ بالتصاعد، كانت درجات الحرارة تصل إلى مستوياتها القياسية، قبل صلاة الفجر أيقظ الأب الجميع، كان الهدوء يطبق على المكان، كانت الأم قد أعدت إناءً من حساء المعجون ووضعته أمام الجميع، تجمهروا حول الطبق، أعطت كل واحد منهم قطعة خبزٍ، كان يوم الأربعاء في الربع الأخير من شهر رمضان، تسحروا بما توفر لديهم من طعام، وبعد صلاة الفجر توسدوا أضلاع بعضهم بعضاً وناموا تحت تلك النداءات المستمرة للحياة.

ظلت اللحظات بهيجةً جداً، تجمهر الناس حولهما كلٌ يريد أن يلتقط معهما صورة للذكرى، شعرتْ بقيمة الصبر الذي بذلته من أجل الوصول إلى بسمةٍ نادرة، تعالت الزغاريد في عرض الحياة وطولها، وها هي أخذت تحلو من جديد، لمحت أمها تقف خلف حلقة المهنئين، كانت تتابع فرحتها من بعيد بعينين مغمورتين بدهشة الحزن والفرح، حيّتها بإيماءة خجولة، كأنها تريد أن تشد من أزرها، في يومٍ هي بأمس الحاجة لمن يشد أزرها، شعرتْ بالأمان لكنها ظلت طوال الوقت تحس بأنها محاصرة بأسلاك الشائكة، كل الأنظار مصوبةً نحوها وهي في يومها البهيج، ترتدي أبهى فساتينها، دخلت معه إلى غرفةٍ عامرةٍ بالحب، وقفت أمامه وهي في صدمةٍ من أمرها، تحاول أن تصدق كل ما يجري، وبعيداً عن تلك السياقات الخالدة والأعراف الموروثة عن ليلة الزواج الأولى كان الخجل يحاصرها من كل جانب، ما تزال تلك البهجة بأصواتها ومتعلقاتها تتناهى إليها، زغاريد وأصوات موسيقا ممزوجة بإطلاقات نارية مبتهجةً بلم الشمل، تحاشت نظراته التي خمرها البعد والاشتياق، ظل يُحدق فيها بتأملٍ ورواء، بعد لحظات التقت عيناهما بصمت، أحست برغبة عارمة في اجتياح عالمه المليء بالألغاز، لكن إطلاقات نارية جعلتها تحيد عن وعيها المستفحل به، تناهى إلى سمعها صوت أمها الدافئ، استيقظت وسط ذهول كبير، لم تكن ترى حولها إلا شظايا الحلم، ملطخةً على جدران المنزل، كانت تلك العوالم الخفية التي ترقد في أمان المحبين، استدركت جزءاً من ذلك الوعي المنعش، ليس هناك أروع من فسحة أمل في نهاية نفقٍ مظلم.

في ساعات الصباح الأولى، كانت المعارك على أشدها، فقد اقتربت لحظة المخاض، بين عتبتين نافذتين، اختلطت أصوات الرصاص مع الهاونات والمدافع مع صرخات المقاتلين، لا يمكن أن يتضح منها شيئاً أخذت الأم تتمتم بالأدعية والأذكار وتتضرع إلى الله

عز وجل، في أن يحفظها وأهلها من كل سوء، فذلك الأنين الذي تتركه قذيفة الهاون خلفه، كأنه أنين الثكالى واليتامى على مصابهم وفاجعتهم، يحبس الأنفاس ولا تهدأ إلى بعد أن تستقبله الصدور العارية، هذه الحرب المقمرة تستنفر الأرواح نحو سبيلٍ لا يتضاءل أمام تلون سبل الحياة، فالخطر يداهم الإنسان من كل جانب، ولا يوجد هناك معنى أصدق من معنى التسليم والاستسلام إلى الله عز وجل.

لا أعرف من أين أبدأ وأنا أروي لك قصتي، ستظل شبحاً يلاحقني، أينما ذهبت، هل أبدأ بأبي أم بأمي أم بإخوتي أم بأخواتي؟ أنا لا أعرف بالضبط من الذي كان أجشع بينهم، من الذي سار إلى الموت واثقاً بخطاه، هم ناموا جميعاً تحت سقفٍ واحد، بحثاً عن الحياة بأكملها أو الموت بأكمله، يا حبيبي أنا بحاجة إلى حبٍّ عاصف يجتاحني لعله يرسم لي حدود احتراقي، هذه الحرب كريمةٌ جداً فهي تركتني وحيدةً، أتصفح جثث الهاربين نحو الأزل، تعال إلى هنا حيث ناموا وغفوا وتلونت أعينهم بالأدعية، والتضرعات إلى الله، متى الخلاص ؟ . . يا حبيبي كل شيءٍ بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء، فنحن نعيش الحزنَ بحزن والفرح بحزن، وها أنا اليوم أرتدي لك فستاني الأبيض، قلبٌ يغفو بين يديك، إلى أجلٍ غير مسمى، ربما سأسميه بعد أول ندبةٍ من ندبات الذاكرة المرة.

وقف عند عتبة قلبها، يهمس بصمت وحنو : وها أنا ذا مترعٌ بالاشتياق سأكون مستعداً دوماً لأقرع طبول الحبّ في بستان لم يتبقَ من خضرته إلا القبل، كوني مسعدةً للجنون، فليس في الحياة ما يدعو للتعقل، وكوني مستعدةً للطيران فليس في الأرض موطئاً للمحبين، هم لم يكونوا إلا قرابين للمحبة والسلام، هم صدقوا لأنهم لم يتخلفوا عن موعد أو باقة ورد، تغفو على متونها في فصل ربيعي قاحل، تعالي وارتديني بهواكِ وعطرك وشذاك، فليس للحرب إلا لونٌ يتيم يجثو على صدورٍ نسيت أن ترتدي نجادة الغرق.

2018 / 2 / 2

مِرآةُ الغِيَاب

لا تقف أمامي إلا الظنون والقوانين منتهية الصلاحية، وليس في الخانة الأخيرة من فضاء الامنيات إلا صوت مزعج، تتركه عجلات المقدمة في قضاء يبتعد عن ميزانية مفترضة، هذه قنوات اتصالي بالعالم تيتمت قبل وجعي وقبل انطفائي، فليس لي إلا حكمة قديمة تتردد في ذهني كلما علمت أن هناك اختلاساً ما يحيط بالأمانات، ويحيط بالإنسان معاً هي المرة قبل الاخيرة تحدثت معه كثيراً عن الآمي وأوجاعي لكنه ظل طوال فترة حديثي معه يحدّق في عيني، كأنني أنسان غريب عنه أو لا أعرفه، كنت غارقاً في قصَّ اخر قصة لم أفهمها فاحتجته حتى أتنفس المعرفة من جديد يا صديقي المعلق في خزف الكلام حاورني في كل طرائق الحوار علمني كيف بإمكاني أن ألوذ بذلك الصمت المهيب وأتنعم بخصلات الوحدة في سعادتي المطلقة؟ علمني هل صار بإمكاني ان أطرق باباً من أبواب عالمك المأهول بالصمت؟ علمني كيف أراك وأصافحك وأنال من اغترابي ووحدتي ووحشتي.

في هذه اللحظة العصيبة من عمري اختبر ذاكرتي وأتفحص مدى اندماجي بهذا العالم فلا طوابير في وجه الصباح على فرننا المجاور ولم تعد تحتفظ الـ "صباح الخير" بمذاقها المعهود الذي عرفناه عنها لقد ماتت كل الصور التي تحتفظ بحيائها وحياتها في وجه الزمن، بعيداً عن مخاضات الصدفة وقريباً جداً من سطوة الانسان للإنسان والانسان للحيوان والانسان لكل ما يحيط به، أنا أبحث عن الكلمة التي تفتح نوافذ الحياة وتعيد توازن الهواء داخل افئدتنا هذه الكلمة التي يبينها الفكر وترسمها عن قيد الامل في عالم مشحون بالحرب واليأس إنها الفضيلة الوحيدة التي لا تكلف الا صوباً عذباً يقاد من عين القلب تجره أحبال صوتية رقيقة جداً منطلقاً في فضاء مذاب بالدهشة.

في موعد جديد لي معه حاولت أن أقتبسه وأتلبسه وأطوف معه حول المكان بمعيته فوق كل الاعتبارات وقبل أي عمر خارج نطاق الامل، كنت أحدثه عن هذه المرة بأمل كبير وعطاء لا محدود، لقد فتحت له قلبي وانتظر بشغف كبير انسياحه بين يدي، انا متفائل جداً لأنني وجدت في اخر انعطافا جديداً كأنه موطأ قدم يعلق وجهي العاري في بوابة الحلم.

انت وحدك القادر على اقتحام وحدتي وتحويل مناخ حياتي من الموحش إلى المدهش، لقد تعلقت بك إلى الدرجة التي جعلتني أشعر بالوحدة معك، وفي كل مرة يطيب حديثي معك أجدني مجبراً على اتخاذ القرارات السريعة من أهمها إغلاق المنافذ والابواب والتغني بالابتسام والتأمل والحديث بصوت يناسب وحشة المكان، أقف أمامك عالقاً في محبرة عينيك ولا أستطيع أن ألفظ غير وجعي أتساءل ببلاهة واضحة كيف لي أن أرسل لك قاموس قلبي وهو محمل بالكلمات المبهمة؟ كيف يمكنني ان أتغاضى عن لحظة ضعفي أمامك؟ والى متى ستبقى صامتاً أمامي لائذا برهبة حبي، كن لي كلما تجدني ذائباً فيك، لقد نفذت كلماتي التي تدعوني لجذب أصحابي إلي، فعلى الرغم من أنهم ألبسوني لباس الوحدة والضياع إلا أني لازلت مؤمناً بأنهم مخطئون بالقوة لا بالفعل وان ثمة يداً طويلة تعالت عليهم وجعلتهم يغنون خارج حدائق محبتي، لكنني واثق جداً من أنك ستكون مختلفاً عن الجميع ستكون نوعاً خاصاً من التحدي بيني وبين الآخرين من حولي.

اليوم أقف أمامك باحثاً عن نفسي التي لا ازال أفتقدها في هذا المعترك المحتدم، يا سيدي كن لي هذه المرة واخرج عن صمتك الخانق إنك تروي لي بصحتك عذابات جديدة لم تكن معهودة من قبل أرجوك لا تزد جرحاً فوق جرحي فليس أمامي سواك أبحث عن منفذ يوصلني بالحياة في هذه الصدمة التي لا تطل إلا على بؤسي.

مساء الخير، لقد تأخرت عليك اليوم بعض الشيء لأنني كنت متعباً كثيراً، كنت غارقاً في هم إنجاز معاملة رسمية خاصة، قضية لا تحتاج إلى أكثر من ساعة تطول لأيام واسابيع، ربما لا تصدقني لو أنني قلت لك أنني أصبحت فاسداً بامتياز، نعم أنا أقدم الرشوة وأشجع على الفساد الاداري والمالي، فلم يعد بإمكاني المضي في إنجاز معاملاتي وأخطر للاستعانة بموظف فاسد يركض أمامي مثل طفل محروم من قطعة لوى، أرجوك دعني أفضل لك القول قليلاً، لقد آذاني كثيراً ذلك الموظف الذي يثير الغضب حين قدمت أوراقي له وقال بعد أن دقق النظر فيها أن معاملتي ينقصها الكثير، حاولت أن أفهم منه معنى الكثير لكنه لم يفسح المجال فقال بنبرة متعجرفة (الي بعدو) وبعد أن أطلق هذه الكلمة دفعني الشخص الذي خلفي وإذا بي وحيداً خارج طابور أعوج، تعبت وأنا أنتظر هناك لمدة ساعتين أصبت بخيبة أمل كبيرة بدأت بجر خطواتي

بثقل إلى الوراء لكن أحدهم أوقفني بعدما رآني حائراً في أمري وعرض علي المساعدة، لم أكن أعلم ما يدور حولي:

- هل تحتاج إلى المساعدة ما؟

أجبته بعد لحظة بإيماءة من رأسي دون ان أنبس بكلمة، ثم قال:

- أتوقع أن تكون معاملتك غير كاملة أو تنقصها بعض الأوراق.

أجبته بتحدٍ:

- لقد أصبحت ذا خبرة في هذا الموضوع ولا يمكن أن يكون في المعاملة نقص ما، الأوراق كلها جاهزة وأصلية.

ضحك ببرود واستهزاء ثم قال وهو يرتب على لفظي:

- يبدو أن خبرتك في المعاملات ليست بالمستوى المطلوب اصغِ إليَّ جيداً هنالك شخص يقف بالقرب من ذلك الباب الأسود، اذهب إليه وقل له أن معاملتي تحتاج إلى دفعه وضع له في داخل المعاملة مائة دولار وفي غضون دقائق سيعود بالمعاملة مكتملة ومختومة وفوقها بوسة.

لقد أذهلني بصراحته كان يتحدث في الامر وكأنه يتحدث عن ارشادي إلى محلة ما في زقاق ما، لكنني بادرت بالقبول على الفور دون أن أفكر في تبعات الأمر، وبالفعل ذهبت إلى ذلك الشخص وأعطيته معاملتي وبعد خمس دقائق عاد بالمعادلة وهي مكتملة وجاهزة.

إنها الحالة الطبيعة التي تنطلق منها رؤوسنا للحياة في كل صباح، إنها صدفة الفساد يا صديقي الحبيب تنخرنا نخراً، قلّي ما العمل وأنا مقيدُ بالأغلال والظنون؟ ومحاط بالخيبة من كل اتجاهاتها؟ لقد مضى وقت طويل ونحن نكذب على أنفسنا بصدق شديد، فلا يوجد أحد أصدق من صوتنا وهو يتوغل في أمعاء العالم نحو مؤخرة التاريخ، يالخيبتي العظيمة في أصدقائي وأحبتي وهم يتناغمون بشكل كبير مع عالمنا المزيف، إنني لست أفلاطونياً جداً بل إنني سئمت هذه التصاوير المعقدة التي لا تختفي من خارطة النقاء.

يا رفيقي الجديد لم يعد هناك ضرورة للحديث عن الإطلاق والمثاليات في عالم لا يخجل من نفسه، كن متيقناً من سطوة الاخرين عليك ولا تترك مجالاً للشك في مبادئك، انت قادراً بقوة

على كشف العالم في ضوء حدوده ولكن من سيساعدك على اكتشاف ذاتك، لا يوجد أحد غير لك ولا يوجد غيرك لي، صحيح أن ما يفصلني عنك هو هذا الزجاج فقط ! إلاّ أنني أعيشك بلا فواصل ولا حدود، ولكن قلي كيف لي أن أنتشلك من عالم صمتك، هذه المرة الاخيرة التي سأتحدث فيها اليك دون أن أستمع إلى ردك أجبني ولا تلذ بالصمت فأنا لست مغفلاً إلى هذه الدرجة التي تتصورها، فلتكن رجلاً بحق وتحدثني كما احدثك.

هل تظن بأنني جاحدٌ إلى هذه الدرجة؟ أن هنا منذ اللحظة الاولى التي جئت فيها كنت أستمتع في الاستماع إليك فأنا هنا رهين هذا الفضاء المفترض، كنت ولازلت أمنح نفسي طاقة جبارة للصمت حتى أتيقن من أنك قادر في كل مرة على مواصلة الحديث بطلاقة كبيرة لقد اتهمتني بالصمت في وقت لا تمنحني فيه فرصة للكلام، لقد كانت المرات التي اجدني فيها مجبراً على الكلام تدفعني للتوقف لأن أصواتي كانت ممزوجة مع اصواتك إلى درجة التماهي، حتى اكاد أشك استقلاليتنا عن بعضنا البعض، أنت تتركني خلف هذه القضبان الزجاجي وتذهب لاستكمال مرحك في عالمك المجهول، وقد نمت في داخلي رغبة كبيرة في ان أمسك بيديك وأتجول في فضائل سلالتك أرجوك فلا تعبث برغبتي هذه وأعدك بصحبة نبيلة قد لا تجدها عند غيرك من الاصدقاء، لقد مر وقت طويل وأنا أحاول أن أتحين الفرصة لأغمرك في عطفي وحبي، هذه وحدتي التي ظلت رهينة هذا الفضاء، لم أشعر بها باداً إلا عندما داهمتني وبدأت ترسم خطوطاً غير متناهية لمطبات حياتي، هات يدك دعني أخرج من ذاتي وألقي بنفسي بين يديك، كنت موقفاً في كل دقة من دقات قلبي إلا حين تحضر أكون أكثر اندماجاً بالعالم، عندما تطل علي اشعر بأن طعماً جديداً تغير في فمي وان زهوراً جديدة تتفتح رغم المك ورغم وجعك ورغم انحسارك في وجه الاماني انا لم ابالي بما تقدحه عيناك من غضب كنت استطعم حلاوة المشاركة والامان كان جنون مني اني مرهون بين يدك خارج من زنزانتي الخانقة ومن بين قضباني، دعني أسير إليك أقطف معك أسعد لحظاتي بعيداً جداً عن مسلسل كوابيس طاقم أحلامي المرة، ظلت المسافة التي بيني وبينك ليست اسطر من ضوء خجول لا يقدر ان يفك اشتراكي بك، زدني بهاءً وأنت تسير نحو عالمك فوق اراضٍ تيبست من ملوحتها القاسية سأكون ملتصقاً بك لا أغادرك، أتجول معك في أسواق المدينة ومنتزهاتها ومقاهيا وملاعبها، أتحقق من

خيوط ظنونك التي أشكلت عليّ خيوط الأجوبة وقطط الحياة، هات يدكَ لأترقبك ويحبو إلى لحظة التوحد معك وصحبتك والغناء معك في صالة مليئة بالمحبين.

والآن بعد كل الذي كان صار بإمكاني أن أنتقل معك إلى عالمي الخاص وأتحسس يديك ووجهك المضيء، أخوض معك غمار البحث عن الاماني المعلقة ربما يتغير رأيك في لحظة ما ويتغير كل اعتقادك بكل ما يحيط بنا، دع لنفسك مجالاً للشك في اعتقادك وأفكارك فهي أقل بكثير من تضخم الدلائل في هذا العالم، ستكون رفيقاً لي أتحدى بك وحدتي ولا أعود إلى مرآتي مرة أخرى لأنك ستكون مرآة متنقلة لي تحدثني عن ذاتي دون أي ملل، هات يدك نقف في طابورنا الأول في يومنا الأول لنحصل على أربعين لتراً من وقود السيارات نتجول بعدها بأمننا المفقود في مديتنا المحاصرة بالخراب.

توقفت السيارة في آخر الطابور الآلي الذي يمتد بمحاذاة المحلات التجارية لأكثر من كيلو متر، أطفأ كريم المحرك وأخذ ينظر إلى ساعته محاولاً احتساب الوقت الذي سينفقه من اجل الوصول إلى داخل المحطة داهمه صديقه بسؤال سريع:

- ماذا تفعل؟

أجاب ببرود لا يتناسب مع حرارة اشعة الشمس اللاهبة:

- اقف في طابور البنزين أملاً في الحصول على حصتي.

رد صديقه بعناد:

- وكم ساعة تحتاج لتحصل على حصتك؟
- لا ادري، ساعتين او ثلاث فنحن مضطرون للانتظار، هناك أكثر من مائة سيارة، هذه السيارات كلها تنتظر دورها ونحن نزحف خلفها ببطء حتى نحصل على حقنا.
- هل أنت جاد فيما تقول.
- نعم بكل تأكيد فالأمر جيد جداً ما دمنا قادرين على أن نتجاوز ونتخلص من فكرة المبيت في الطابور للوصول إلى المحطة.

قال مصدوماً:

- وهل جربت المبيت في العراء للحصول على البنزين قبل اليوم؟
- نعم، مرت علينا أيام ليست بقليلة كنا نضطر للمبيت ليوم او يومين للحصول على الحصة.

- يا رجل كيف يمكننا أن نقاوم هذا الحر اللاهب تحت رحمة هذا الحديد؟ خرج من الطابور واذهب إلى المحطة مباشرة واخبرهم بأنك مدرس لمادة اللغة العربية ولا يمكنك الانتظار لوقت طويل حتى تتمكن من الذهاب إلى المدرسة.
- هذا مستحيل.
- لماذا؟
- لان الطابور غني بالكفاءات وأصحاب العقول لاسيما وأن الكثير منهم يعملون سواقاً لسيارات الاجرة وليس باستطاعتهم شراء البنزين من السوق السوداء.
- وهل هذا معقول؟
- نعم، وقد نجد من هو خلفنا او قبلنا اشخاصاً مختصين بعلوم الاقتصاد وهندسة النفط ووزارة التخطيط.
- برم صديقه شفتيه واخذ يهز رأسه ممتعضاً، أحس كريم بأن صديقه في موقف لا يحسد عليه، فبادر مطمئناً:
- ولكن لا عليك، سيمضي الوقت أسرع بكثير مما نتوقع، وبعدما أن نكمل تعبئة البنزين سأطوف بك في أرجاء المدينة حتى ترى الصور الحية التي تحيط بنا من كل جانب.

لم يكن العرض الذي قدمه كريم لصديقه الوافد الجديد إلى عالم الاماني المعلقة خالياً من نبرة الخبث، فقد كان يصر في كل لحظة أن يكشف له ما تعسر من الأمور، كأنه يريد أن يبرر له موقفه القديم وهو يقف أمامه متداعي الاطراف متهالك البنى، كان يحس بتنامي اليأس في قلب صديقه وهو يتأفف بين الحين والاخر، ظل الطابور يزحف ببطء نحو المحطة، وبعد مرور ساعة ونصف من الانتظار بدأت المحطة تلوح في الافق، لكن الحر الشديد المنبعثين من اشعة الشمس والشوارع الاسفلتية جعلتهما يغرقان في كآبة الموقف تناهى اليهما صوت بائع متجول، يعتاش على أزمة الوقود يدفع أمامه عربته الخشبية كتب على مقدمتها خط لا يخلو من العشوائية (موطا لذيذة)، كان يسير بالاتجاه المعاكس للطابور، يصيح "موطا الوان موطا" ثم يختلس نظرة إلى السائق الذي يجلس في سيارته وتطوقه الحيرة من كل جانب، ليرى وقع كلماته عليه املاً في ردةٍ فعلٍ تنتهي بكوب من (الموطا الباردة)، فإذا يئس من صاحب السيارة تقدم نحو السيارة التالية لكنه يجرب طريقة اخرى في الاغراء محاولاً استدراج احدهم إلى عربته وحضها البارد فيصيح

(برد گلبك)، لفت كريم انتباه البائع فأشار له بالقدوم، تقدم البائع بسرعة إلى كريم وقدم له بوضتين لذيذتين في اللحظة التي لم ينتبه أن السير قد تقدم، تعالت الصيحات خلفه وصفارات السيارات وكأنه ارتكب جريمة فضيعة على الرغم من أن السير لم يتقدم أكثر من عشرة أمتار، وبينما همّ كريم بإعطاء البائع نقوده جاءت سيارة مسرعة فوقفت في الفراغ الذي حصل بين كريم وبين الطابور، عندها صدم كريم لوقاحة السائق الذي لم يحترم من هو خلفه، قال لصديقه بعد أن يئس من تقديم السيارة:

- والان يا صديقي نهاجم أم ندافع؟

تساءل صديقه الزجاجي:

- نهاجم من وندافع عمن؟
- نهاجم الذي قفز أمامنا دفاعاً عن أنفسنا من هجوم من خلفنا.
- يا رجل هل نحن أمام حرب
- ربما تكون كذلك فتهيأ لكل طارئ

بدأ الخوف يدب في عروق صديقه وأخذ يلوم نفسه على هذه الورطة الكبيرة التي أوقع نفسه بها، بادر كريم بالنزول من السيارة بعد أن تعالت الصيحات من خلفه وأصوات السيارات وهي تزمر في مؤخرة سيارته، فتح باب سيارته وقال (يا الله) كأنه يجهز نفسه لخوض معركة ما، كان يمدّ خطاه بريبة كبيرةٍ، لقد اعتاد على مساومة الحرب بالسلام، كان ضميره يدعوه إلى مفارقة الموقف والرجوع إلى صاحبه الذي ظل جالساً متسمراً يشاهد كريم يخطو إلى وعكة نفسية حادة، كان يتابع الموقف يمسكك بيده اليمنى بوضته بينما كانت اليسرى مشغولة ببوضة كريم، الذي ما زال يصارع احتدام الموقف فهو لا يقوى على الرجوع، لأن الهرج الذي يتزايد خلفه يتصاعد لحظةً بعد أخرى، كنت خطاه مثقلة جداً، اقترب أكثر من السائق السيارة المتجاوزة على الطابور، فإذا هو شاب مفتول العضلات قبيح المنظر، يمسد شواربع بأطراف أصبعه وتتطاير من عينه أنفاسُ الشر، نظر في وجهه فاستعاذ من الشيطان الرجيم في سره، قال بعد لحظة صمت:

- عذراً، يبدو أنك لا تعرف أنك وقفت سهواً في طابور يتجه لمحطة الوقود، فهذا ليس مكان للوقوف.

وخزه السائق بنظرة تحدٍ، ثم أجاب:

- أنا أقف في الطابور وأعلم أنه طابور لتعبئة الوقود

تجردت الحيل من وجه كريم أراد ألا يسمع هذه الإجابة لكنه مضطر لتقبل الواقع بكلِّ مرارته:

- طيب هل تعرف أنك متجاوز على عشرات السيارات التي تقف خلفك

ازداد حنق الرجل عليه:

- نعم أنا متجاوز وأعرف بأني متجاوز، ولكن وجدت المكان فارغاً فوقفتُ فيه، لماذا تركت المكان لغيرك؟
- يا رجل هي لحظة خاطفة لم أشعر إلا وأنت أمامي !

نفخ الرجل في وجه مقوده، وحوقلَ بتأفف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله

ابتسم كريم كأنه وجد شيئاً ما في قلب الرجل، وقال له بنبرة المتوسل:

- ما دمت تعرف الله، فاتقيه فينا يا رجل واخرج من الطابور أو دعني أقدم سيارتي أمامك وكن أنت خلفي !

لم ينبس الرجل بكلمة، احتقن وجهه بالغضب، فتح الباب وترجل عن سيارته، أمسك بتلابيب كريم، ثم دفعه بقوة جعله يترنحُ قبل أن يسقط على الأرض، انتفض كريم كالأسد وصرخ في وجه الرجل هجم عليه، رفع يده ليضربه ويرد اعتباره، لكن الرجل استطاع بحركة بهلوانية أن يلفّ يد كريم ويضعها خلف ظهره، ثم وضع رجله في مؤخرته ودفعه بقوة، جعلت كريم يطير كأنه فراشة نحو سيارته، كان صديقه يتابع المشهد من بعيد لم يكن في حالة تمكنه من التفكير بما يجري، ظل جامداً واجماً على الرغم من أن دموع بوضتيه، بدأت تسيل على أصابعه، تدخل رجل ثالث ورابع لفك النزاع بينهما، تقدم عدد من السواق لإخراج الرجل من الطابور اتسعت دائرة الخلاف تجمهر، علت الأصوات، وتلاطم موج الأيادي والشتائم، كان صديقه مضطراً لأن يصمت، لكنه شعر بالقلق لأن كريم غاب عن الرؤية، كان كريم قد غرق في شجار الأيادي، حضرت دورية مستطرقة للشرطة، سرعان ما سمع دوي إطلاقات نارية لفك النزاع، بدأ الطابور يتفكك، تلقى

صاحب المحطة أمراً بإغلاق المحطة على الفور، بعد دقائق معدودة استطاعت الشرطة أن تفضّ النزاع بالقوة، عاد كريم إلى سيارته منهك القوى، رث الثياب، يسيل خيط رفيع من الدم من إحدى وجنتيه، كانت سيارته الفيكترا – أوبل مركونة في مكانها قد ناهلت الكثير من الركلات أدت إلى تهشيم زجاج بعض النوافذ، فتح باب السيارة، لكنه صدم لم يجد أحداً فيها، لقد غادر صديقه عالمه تاركاً له مظروفاً فيه رسالة كتب فيها: (للمرة الأولى في حياتي أحس وأقر بأنني غير قادر على الكلام، وهذا سبب عدم مواجهتي لك، لقد خاب أملي بنفسي كثيراً في الوقت الذي ازدادت ثقتي بك كثيراً، فلم يكن عالمك إلّا غابة موحشة خارجة عن نطاق الرحمة، كنت مخطئاً حين ظننت بأنّي قادر على مجاراتك في صبرك، كنتُ مخطئاً حين شعرت بأنني أعيش في سجني الزجاجي، لقد كنتَ محقاً جداً يا صديقي فليس هناك أقسى من تكرار الصدف القاسية لحظّ لا يحتاج إلى من يحسده، أعتذر منك لأنني لم أستطع أن أحرك ساكناً وأنت تطارح ذلك المعتوه، أعتذر منك لأنني لم أحسن صحبتك، وأنت تفشل في الحصول على حقك من وقود لسيارتك أو وقود لروحك، أعتذر منك لأنني تركتك دون وداع، فالصدمة كانت أكبر من أن أضع قبلةً على خدك، ستجدني هناك خلف قضباني، أتحسسك بعينيّ الجريحتين، وأنفخ عن وجهك غبار الدهشة والضياع وأنت تنثر دمك بين أزقة الحالمين، ولك السلام والتحية).

2019 / 1 / 19

حفنةُ الياسمين

أدخلَ عينَهُ في العدسة اللاقطة مشّط المكان حوله، فرأى أن العدسة الأمامية لا تزال معتمة وتعلوها بعض الأتربة وبقايا بصمات، فهمّ بتنظيف كاميرته ثانيةً، ليدقق فيها النظر مرات متعددة لتصبح في النهاية قادرةً على رصد التهيؤات والأفكار والظواهر على حدٍ سواء، تعلق منذ صغره بسحر الرصد والكشف والاكتئاب والاختزال، فعرف أن الكاميرا هي الطاقة الوحيدة التي يمكنها أن تجمع كل هذه المغامرات دفعةً واحدة، بدأت إرهاصات عشقه وولعه بها منذ أن كان في سن الخامسة عندما أخرج له جدّه العائد من أداء فريضة الحج، كاميرا بلاستيكية وقال له: إن فيها صوراً من بيت الله الحرام، أمسك جده بإصبعه ووضعه على الزر الذي يتحكم بتقليب الصور، ثم قربها من عينه اليمنى وترك أمامه فسحةً من الضوء، فرأى الكعبة الشريفة تسبح في محيط البشر، وقال له: اضغط فانسحبت الصورة الأولى لتحل محلها صورة جديدة، قبر الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) لتتغير الألوان وتتبدل الهواجس، ثم صورة جديدة مقربة لفوهة الحجر الأسود، بينما يدفن أحد الحجيج رأسه فيها، وصورة أخرى للمسجد النبوي الشريف، ذي القبب الخضراء التي تقوم على فضاء نقي ناصع، عاد إلى عالمه الطفولي لكنه لم يستطع أن يخفي اندهاشه وانبهاره بهذه اللعبة الجميلة، فلا يزال يكرر تقليب الصور حتى توقفت الكاميرا بين صورتين فلا هي تعيد الصورة السابقة ولا تستقبل الصورة اللاحقة.

سمع صوت اهتزاز الهاتف نظر إلى الشاشة، أجاب بحماس:

- أهلا . . . أهلا
- مرحباً . . . كيف حال المصوراتي؟
- بخير الحمد لله
- يا سيدي لا أريد أن أطيل عليك، اسمع ما سأقرأ لك:

"تقيم جمعية المصورين مسابقةً للمصورين الشباب في مقر الجمعية، فعلى الراغبين بالمشاركة تسجيل أسمائهم ابتداءً من يوم السبت القادم، علماً أن آخر موعد لتقديم الأعمال سيكون في يوم الخميس 27 آذار، بينما يتم إعلان النتائج وافتتاح المعرض في يوم الاثنين 5 نيسان، (جريدة اليوم) ما رأيك؟

- جميل جميل جداً
- إذن، بحكم قربي من مقر الجمعية سأذهب وأسجل اسمك، وما عليك إلا أن تختار تحفةً من تحفك النادرة وتقدمها لهم، لديك متسع من الوقت.

نظر إلى الساعة بنظرة خاطفة كانت تشير إلى الثالث من آذار، قال بتكاسل:

- بصراحة، أظن أن ما موجود لدي من صور لا يتناسب مع جو المسابقات والجوائز، أنت تعرف أنا هاوٍ ولا يمكنني أن أنافس المحترفين في هذا الشأن
- يا رجل . . كفاك تواضعاً، القضية لا تتعلق بالهواة والمحترفين، أنت تمتلك إرشيفا رائعا وفيه الكثير من الصور الفريدة، ومع ذلك إن لم تكن تثق بما عندك، فلديك متسع من الوقت احمل كاميرتك، وابحث وارصد وتقصى والأجر على قدر المشقة.

تنهّد باستسلام:

- حسنٌ . . . سأحاول، لكنني سأختار صورةً من صوري القديمة إن لم أفلح في التقاط صورة جديدة
- أتمنى لك التوفيق الدائم

جال ببصره على جدران الحجرة يتأمل الصور المعلقة، سيجارة متوفاة تنخر النار قلبها وهي تصرخ دخاناً بخلفية سوداء داكنة، وشيخ مسنٌ يفترش على الرصيف قطعة قماش يضع فوقها أوانيَ منزليةً مستعملة تغتاله غفوةٌ مفاجئة، ويدٌ تحمل ورقةً بيضاء بداخلها قلم مكسور يسيل منه دمٌ أسود، وغيرها من الصور والأعمال التي يعتز بها، فتّشَ في أرشيفه على الحاسوب أمضى وقتاً طويلاً وهو يقلب الصور ويتأملها حتى توصل إلى قناعة مفادها أن هذه الصور لم تعد تعكس تطلعاته وأفكاره الخاصة، صدّ وجهه عنها بانكسار، كأنه يعلن براءته منها.

مضت أيام قبل أن يقرر الخروج، حمل عدته محاولاً أن يصطاد ما يعيد له الثقة بنفسه، كان لا يزال هاوياً بفن التصوير ولم يصل إلى مستوى الاحتراف بعد، لكنه يصرّ في كل صورة يلتقطها على ما تتضمنه من رسائل وأفكار ودلالات، وظلت قضية حصوله على كاميرا ذات المواصفات المتوسطة (sony hk200) قضيةً مفصلية في استمراره بعمله، فقد آثر على نفسه ألا ينعم بملبس أو مأكل حتى يحصل على الكاميرا، وهو يشعر أنه غير قادر على مواصلة الحياة بلا كاميرا فهي العين التي يرى بها دقائق الأمور من حوله.

وقف على الجسر الذي يفصل بين ضفتي المدينة شمل المكان بنظرة عامةً، النهر والنوارس والأشجار والأمل، التقط عددا من الصور دون أن يشعر بأمان الرضا، حزم عدته ومشى وهو يراقب، فلم يجد نفسه إلا وسط المدينة المكتظة بالمارة، فقدت الشوارع فيها بريقها المعهود وخفت النور في الوجوه، محالٌ تجارية متداخلة منازل وعمارات مهترئة، حاول أن يجد ملمحاً مميزاً، فلاحت أمامه مئذنةٌ شامخة تنتصب في فناء جامع أثري يعود إلى حقب زمنية بعيدة، كان يراقب النقوش التي تحيط بخصر المئذنة حاول أن يتبين كلماتها لكنه لم يفلح، اقترب

أكثر، واختار زاويةً مناسبة للتصوير والرصد، وقف يتأمل المئذنة جيداً وجدها شامخةً متوغلةً في زرقة السماء، أمعن النظر فيها تبين النقوش والزخارف الإسلامية التي تزين المئذنة، آيات قرآنية منحوتة بعناية فائقة، وضع كاميرته على المسند الخاص بها، وبدأ يعاين الصورة فاكتشف أن عليه الابتعاد قليلاً حتى تتضح ملامح الصورة وتبدو أكثر انسجاماً، انحنى ثانيةً وعاين الصورة فوجدها بزاوية مناسبة جداً، فبدأ بضبط إعدادات التقاط الصورة، الألوان والتباين والفوكس وفتحة الشتر والبؤرة . . . ، وجد أن امتزاج اللونين الأخضر والبني يمكن أن يسهم في إضفاء الانطباع المناسب لصورة المئذنة ذات الطابع التاريخي الإسلامي وهي محاطة بفضاء أزرق صافٍ، ألقى نظرةً أخيرة قبل لحظة الالتقاط فوجدها في وضع ملائم جداً، كتم أنفاسه وأدخل عينه في العدسة الخلفية بحذرٍ شديد فأي حركة تتزامن مع لحظة التقاط الصورة تؤثر على درجة وضوحها ونقائها، وما هي إلا لحظة فاصلة حتى تحولت المئذنة إلى وجه رجل ذي ملامح خشنة، تفحص الصورة جيداً فهاله الموقف، رفع رأسه فوجد شرطياً بجسم ضخم يقف أمامه يصرخ في وجهه:

- ماذا تفعل هنا . . ؟!

وقبل أن يفسح له فرصةً للإجابة قفز الشرطي على الكاميرا، شنقها مع سندانها وعلقها بيديه، بينما دفع الضحية في يده الثانية إلى مركز الشرطة.

عقدت الصدمةُ لسانه لم يستطع أن ينبس بكلمة، جرّ خطاه بثقل وراء الشرطي دون أن يفهم سياق الجريمة التي ارتكبها، تيبست الكلمات في فمه همّ بالسؤال بالاعتراض بالمواجهة بالرفض والتمرد لكنه تراجع واستأنف انخذاله وانقياده للشرطي، بعد لحظات أوقفه الشرطي في مكان معزول وصرخ بوجهه محذراً إياه من التحرك، تركه لأمتار قلائل تحدث إلى ضابط برتبة نقيب، لحظه وهو يهزّ رأسه بتوتر، عاد ولا تزال عيناه ترقبانه بريبة وخبث، دفعه بيديه اليمنى إلى الأمام ترنح قبل أن يسقط على وجهه، تعجب كثيراً من قسوة تعامل الشرطي معه، أوقفه بقوة ثم صرخ به إلى الأمام، كانت يده خالية من الكاميرا لكنه علّق في يده الأخرى حزمة مفاتيح، وقف عند باب السجن الذي يطل على ممر طويل ينتهي بغرفة مظلمة، ترتفع بها نسبة الرطوبة إلى الدرجة الخانقة، كان المكان موغلاً في الوحشة والغرابة، هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها إلى السجن، لكنه تعجب من الهدوء من الوحدة، لم يكن هنا أحدٌ غيره، هل هذا السجن مهجور؟ هل استقام الناس جميعهم فلم يبق في السجون أحد؟ كانت تحسس الجدران الباردة كان يبحث عن ركن دافئ لكنه استعرض الجدران بنظرة فاحصة، كانت الذكريات تغطي كل الأرجاء، استطاع أن يقرأ بعضها بصعوبة رغم سماكة الظلام، جلس القرفصاء في أحد أركان الغرفة

الخالية من النوافذ والأبواب ظل ينتظر لساعات دون أن يتغير شيء أتعبته الأفكار والظنون، شعر بالتعب والإرهاق، كان المكان يحفل بالنعاس والاسترخاء، بعد لحظات غرق في نومٍ عميق.

شعر بالأمان المطلق وهو يرى أمه تعبث بشعره وضع رأسه بحجرها تمسده وتحدثه عن عمته زهور كيف أنها جاءت من بيت الله الحرام، ولم تحضر لها هدية ما، ولا حتى قارورةً من ماء زمزم، كان يدافع عن عمته وهو في حياض أمه، سرعان ما استطاع تغيير الموضوع معها ووعدها برحلة إلى الديار المقدسة، كانت فرحلتها كبيرةً جداً، رفعت يديها تدعو له بالحفظ والرعاية والتوفيق وأن يرزقه الله الرزق الحلال.

أدهشه الصراخ داخل الغرفة لم يجد نفسه إلا واقفاً أمام الشرطي، والفزع يخيم على وجهه، أمسك الشرطي بتلابيبه وأخذ يجرجره وراءه، عنده تجشع كثيرا عندما أمسك بيد الشرطي وأطاح بها في الهواء، وهو يصرخ:

- ما الأمر؟ ماذا هناك؟ ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟

جن جنون الشرطي، هجم عليه وقفز على صدره فأرداه أرضاً وهو يسبه بأبشع الشتائم، بعد لحظات لم يجد نفسه إلا في قاعة كبيرة فيها عشرات السجناء، كانت العيون تحيط به من كل جانب، تمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلعه من شدة الإحراج الذي يعيشه، تعاظمت الصدمة في قلبه، حاول أن يخرج نفسه من هذه الحلقة المريبة، فبادر بخجل باذخ: (السلام عليكم) كانت هواجسه كلها بانتظار ردٍ يبدد في داخله وحشة المكان وغرابة الموقف، لكن أحداً لم يجبْ، فظل يدور في حلقة مفرغة من الضياع بقي يرقبهم بنظرة شك، كم تمنى لو أنه سجين قديم يعيش في دفئ التفاصيل، لا أحد يسدد إليه النظرات، بعيداً عن هذا الموقف المريب الذي يمر به، انسحب إلى مكانٍ خالٍ قريب من دورة المياه، كانت الغرفة مكتظة بالمساجين، وجوههم مغبرة، كان يتحسس الوجوه بعينه النيئة التي تقرأ الهواجس والأفكار، لكل شخص فيهم

أسند ظهره إلى الحائط الرطب أحس ببرودة خفيفة وبالقشعريرة معاً، لا زال أكثر السجناء يتعقبونه بنظراتهم، ومع مرور الوقت خففت حدة النظرات، حتى امتهن هو حرفتهم ليطلق عينه تحبو على أجسادهم تتعقب أمتعتهم الرثة، وألبستهم التي فقدت طعم الألوان وحلاوة البهجة، ووجوههم التي سلب القيدُ منها نضارة الانطلاق، كم تمنى لو أن كاميرته معه الآن ليدون هذه التفاصيل الغنية بالشقاء يتعقبها بهدوء تام وحرية فريدة.

تعجب من حالة الصمت التي تسود المكان، لا أحد يتكلم، لا أحد يمزح ولا أحد يصرخ، ترى أكلُ هؤلاء راضون بهذه الحال؟ كيف لهم أن يقضوا الدقائق والساعات والأيام والشهور وهم

بهذا الصمت المريب؟ بهذا الموت؟ خطر له أن يدور عليهم ويمدهم بالطاقة بالحياة، ويسألهم ويشجعهم على الفضفضة، لكنه خجل من نفسه، عندما تذكر خيبة السلام، طال الصمت فطال القلق لأن إحدى أبرز الحالات التي تؤكد عليها فلسفة الحبس هي أن تجبرك على العيش والتعايش مع أناس لا ترغب بالحديث معهم إنها مأساة وعذاب كبير، أن تظل في مكانٍ لا تحبه مع شخصٍ لا تحبه ووقتٍ لا تحبه، بداعٍ لا تحبه.

- قتل . . . سرقة . . . اغتصاب . . . نصب واحيال؟

ثمةَ صوتٌ، إنه الحياة، تحسس الاتجاه الذي ينبثق من الصوت، وفي الوقت ذاته تملكته الصدمة، لوقاحة الاستفسار، تساءل بخيبة، أنا أقتل؟ ! أسرق ؟! أغتصب؟! آمن حينئذٍ بأنه في السجن، وصدق رؤياه، التفت إلى اليسار فوجد شخصاً ينام على جنبه ويسند رأسه على يده، يلفه جلباب عريض خشن، تيبست أطرافه:

- عفواً . . ؟!
- ما هي تهمتك؟

أكبر عليه استدراكه وتلطفه في السؤال والاستفسار، قال بألم:

- والله لا أعرف
- ولكن كيف أتيت إلى هنا؟

تنهد باستياء:

- أبداً . . . أنا مصورٌ هاوٍ، أبحث عن مناظر جميلةٍ لأصورها، تنتظرني مسابقة نهاية هذا الشهر، كنت ألتقط صورةً لمئذنة الجامع الكبير القريب من هذا المركز، وهجم علي شرطي واقتادني إلى هنا.

هزتِ الرجل ضحكةٌ مكتومةٌ لم يظهر منها سوى حشرجة صدره أعقبها سعال قوي، اعتدل على أثره وانتهى ببصاق دفنه في منديل بالٍ:

- يا رجل هذه نعمةٌ وليست تهمة . .

ثم استأنف ضحكة خرساء، قبل أن يستدرك:

- ولكن الحق عليك، لأنك لا تعرف أن التصوير في هذه الأماكن ممنوع.

عرف حينئذٍ أنه حبس بسبب التصوير، أجاب ببراءة:

- ممنوع! ولمَ المنع؟ إنها مئذنة جامع أثري وتصويرها ليس فيه ما يستوجب المنع.
- نعم هذا صحيح، لكنك تصور بالقرب من مركز الشرطة الذي نحن فيه الآن، لكن لا تقلق قضيتك سهلةٌ جداً، ولن تبيت هذا اليوم هنا، وقع أناس قبلك في هذا الفخ، ولم يبقوا أكثر من ست أو سبع ساعات، وربما أقل.

تنفس الصعداء وتفهم موقف الشرطي، تساءل:

- هل مضى وقت طويل وأنت في السجن؟ ما هي تهمتك؟
- حكايتي طويلة، وقد لا تكفي المدة التي ستقضيها معنا في الدخول إلى عتباتها الأولى
- ألهذا الحد قضيتك معقدة؟

هزّ الرجل رأسه دون أن ينبس بكلمة:

- أنا هنا منذ شهرين ونصف أنتظر محاكمتي

سكتَ قليلاً ثم استدرك:

- قيل لي أنني سأقدم إلى المحكمة في تموز القادم
- هل لي أن أعرف ما قضيتك؟ ما هو الجرم الذي ارتكبته؟

أجاب الرجل بسرعة وانفعال:

- أنا بريء ولا ذنب لي
- ولماذا أنت هنا إذن؟

أخرج سيجارةً من تحت وسادةٍ بالية وقبل أن يضعها في فمه قدمها للمصور لكنه رفضها بهزة رأس خفيفة، أشعل سيجارته وأخذ نفساً عميقاً ونفث زوبعة دخان في الهواء وأخذ يراقبها بحسرة وألم:

- لا أعرف . . قدري أم سوء حظي . . الحمد لله على كل حال.

حاول أن يحثه على الكلام ويشد من عزمه:

- اصبر . . إن الله مع الصابرين
- ونعم بالله، حسبي الله ونعم الوكيل

سكت قليلاً قبل أن يواصل حديثه:

- قبل نحو شهرين ونصف كنت في السوق أقف عند أحد المحال التجارية، عندها حدث انفجار ضخم ليس بعيداً عني، دفنت رأسي بين يدي وانبطحت أرضاً كنت أتحسس جسمي وأطرافي أبحث عن الجزء المفقود أو عن إصابة أو طعنة، لكنني لم أصب بأذى، بعد لحظات قلائل هممت بالهروب لكنني فوجئت بقوة عسكرية من الجيش والشرطة تداهم المكان، تم اعتقال كل شخص أتى به القدر إلى هذا المكان، كان هناك ما يقارب الخمسين شخصاً جميعهم اعتقلوا بما فيهم أنا، بقيت في هذا السجن اسبوعين ولم أستطع أن أخبر أهلي بمكان، لكنني اتفقت مع أحد الحراس وأبلغهم بوجودي بعد أن دفعت له مبلغاً من المال ثمن المغامرة.

سادت حالة من الصمت قبل أن يواصل الرجل حديثه:

- مرر إلي أحد الحراس أنه يستطيع أن يخرجني من هنا، قبل المحاكمة لكنه طلب مبلغاً من المال، أعجز عن توفيره له

كان الرجل يتحدث بهدوء يطأطئ رأسه، قبل أن تبدو عليه ملامح التوسل كأنه تذكر شيئاً مهماً:

- اسمع أخي، آمل أن تتفضل وتسدي إليّ خدمةً سأذكرها لك ما حييت
- قل . . . أنا حاضر
- بما أنك لن تطيل البقاء هنا وهذا ما أتمناه لك، سأكتب رسالة آمل أن توصلها إلى أهلي، أمي وأبي وزوجتي وطفلتي، هم بانتظار أي شيءٍ يصلهم مني، أنا معيلهم الوحيد وهم الآن بأمس الحاجة لأي خبر مفرح.

نهض وذهب إلى الجهة المقابلة حيث يجلس رجل مسنٌ تبدو يدعى أستاذ شوكت، همس في أذنه قبل أن يناوله قلماً وورقة، عاد وأسند ظهر إلى الحائط تنهد قليلاً وهو ينظر إلى السقف الحجرة، ثم تكوم فوق الورقة وأخذ يكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم" توقف لبرهة فلم يعد يعرف بماذا يبدأ رسالته، بقي للحظات وهو يفكر في البداية المناسبة لمكتوبه، ثم واصل "أبي الغالي أمي الحنونة، زوجتي الحبيبة طفلتي الحبيبة، أشتقت إليكم كثيراً آمل أن تكونوا بخير وصحة وسلام، أنا بخير الحمد لله لا تقلقوا علي، أنا وكثير من الأبرياء موقوفون في السجن وسينتهي الأمر بالبراءة إن شاء الله، أحبكم جداً" أياد عبد اللطيف 4 / 3 / 2009" قلب الورقة وكتب على ظهرها عنوان المنزل، وناولها له بوافر من الاحترام، وعده بإيصالها بأقرب وقت حال خروجه من السجن.

بعد لحظات سمع صوت أقفال وهي تزمجر بأيدي السجان، فتح الباب فاعتدل الجميع، وبدت على وجوههم مظاهر الجدية الممزوجة بالأمل، نظروا إلى يده فإذا بها بطاقة ورقية صغيرة يستدعي بها المساجين، نظر إليها بتثاقل، ثم صاح بصوت رخيم:

- عصام عبد الرزاق محمد

أجال السجان ببصره على المساجين، فأخذوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً، هتف عصام:

- نعم .. نعم
- قمْ . .

في غرفة التحقيق كان كل شيء مخيفاً وبارداً، تعثر الشاب قبل أن يصل إلى الكرسي، شعر برغبة كبيرة في الجلوس، لكنه ظل واقفاً خوفاً من صفعة مفاجئة، كان يجلس خلف الطاولة ضابط تحقيق يبدو في مقتبل العمر، كان ينظر في الأوراق التي أمامه، قال وهو لم يحرك ساكناً:

- اجلس . . !

ظل عصام واجماً للحظات لم يستطع أن يتبين حقيقة الطلب، بعد لحظة صمت قال له بهدوء:

- اجلس يا رجل !

جلس وهو لا يزال مربكاً، سأله بهدوء:

- ما اسمك؟

أجاب بنبرة لا تخلو من الخوف:

- عصام عبد الرزاق محمد
- ما عملك؟
- أنا طالب في كلية الصيدلة، في المرحلة الرابعة، أعمل في صيدلية مرخصة، بعد انتهاء الدوام

وخزه الضابط بنظرة اهتمام، واصل بحزم:

- ما علاقتك بالتجسس؟

احتقن وجه عصام بالدم، وبدت على ملامحه مظاهر الخوف:

- أيُّ تجسسٍ سيدي؟ أنا لا أعرف عن أي قضية تسأل

تظاهر الضابط بعدم سماع الجواب:

- مع من تتعاون لتوصل إليهم هذه الوثائق والصور؟

عقد لسانه ولم يستطع أن يدافع عن نفسه، قال بعد لحظة صمت:

- سيدي عرفت من أحد المساجين أن التصوير ممنوع، بالقرب من المركز، وربما يكون هذا السبب وراء وجودي هنا، ليس لدي علاقة بأي شيء مشبوه كل ما . .

قاطعه الضابط بإشارةٍ من يده، وناوله ورقة تعهد، يلزمه بالتعهد بعدم التصوير في الأماكن المحظورة، أخذ الورقة وقرأها بعناية ثم كتب ما يلزم ووقع، وأعطاها للضابط، بعدها قرأها الضابط بهدوء ثم انحنى جانباً، وحمل الكاميرا والمسند وأعطاها لعصام

- هذه عدتك، وتذكر دائماً أنك أعطيت تعهداً بعدم التصوير في الأماكن المحظورة، هذه المرة عولج الموقف بتوقيف لعدة ساعات ومسح الصور الموجودة في بطاقة الذاكرة، أما في المرة القادمة فأنا لا أعرف ما الذي سيجري لك ! ثم أشار إليه بالخروج

لقد كانت صدمة حذف الصور أكبر من صدمة التوقيف نفسها، فقد ضمت الكاميرا الكثير من الصور التي يعتز بالتقاطها والاحتفاظ بها، مرت أيام عديدة وهو يحاول أن يستعيد الصور المحذوفة من البطاقة لكن بلا جدوى، كل صورةٍ كانت في الكاميرا تختزل بداخلها ذاكرةً حية، وحكايةً وفكرةً وروحاً، إنه يحس بوهج الروح الذي تكتسبه الصورة الحية، يتساءل دائماً ما هو السر الذي يجعلنا نندهش عندما نرى صورنا القديمة بعد مرور عدة أعوام، إنه الروح المعتقة التي داخل بنية الصورة في ألوانها وتراكيبها وسحرها، كل صورةٍ كانت داخل بطاقته المحذوفة ملكه الخاص تركته الثقيلة التي تحتاج إلى عرابٍ عظيم يعرف كنهها وشغفها بالسحر، كل صورة كانت في بطاقته المحذوفة كانت ملكه لأنه اشتراها بوقته الخاص، وأنفق عليها أجمل لحظات عمره، كل صورة كانت في بطاقته المحذوفة كانت لوحة تعكس انطباعاته عن العالم الذي يحيط به، لذا كان يحرص دوماً على الاحتفاظ بالصور إلى الدرجة التي تجعله يشعر بالأمان والثقة بالنفس مع وجود تلك الصور.

بقي أسبوع واحد يفصل عصام عن آخر موعد لتقديم الصورة للمسابقة، شعر بقلقٍ دفين، تمنى لو أن المسابقة تُلغى، أو يتم حذف اسمه من بين المتقدمين، لقد كانت نكبة التوقيف مؤلمةً وصادمةً، فلم يعد يهتم بالفوز أو الخسارة، بعد عدة أيام تذكر رسالة إياد، عرف أنه تأخر كثيراً

على إيصال الرسالة لأهله، حمل الكاميرا وخرج قاصداً بيت أياد، كان يمشي ببطء وهو يحاول أن يرصد ما يراه مناسباً للمسابقة، في داخل الزقاق الذي يقع فيه بيت إياد، وقبل أن يصل إلى البيت رأى طفلةً صغيرة لا يتجاوز عمرها السنتين تحفها البراءة والعفوية، حاول أن يلتقط لها صورة لكنها خافت منه فهربت إلى داخل البيت، كان أبو إياد رجلا مسناً يعتاش على راتبٍ تقاعدي بسيط، كان البيت بسيطاً جداً، جلس إياد في باحة مفتوحة كانت بمثابة غرفة لاستقبلال الضيوف، علم الشيخ أن عصام جاء رسولاً من إياد فأدمعت عيناه، وبعد لحظات أعطى عصام الرسالة للشيخ، فتحها ببطء وتثاقل بيدين مرتعشتين، أخرج نظاراته من جيبه وبدأ يقرأ بصمت ووقار، كان يهز رأسه بين الحين والحين، ظل عصام يراقبه بحنو، كان الشيخ يختزل كثيراً من الألم والحسرة، فجأة رأى عصام ان دمعة انسلت من تحت النظارة، كم تمنى عصام لو أن بإمكانه إخراج كاميرته والتقاط صورة للشيخ من زاوية مقابلة، فأخرج الرجل منديلاً ومسح دمعه من تحت نظارته، بعد لحظات دخلت الطفلة ذاتها كانت تمشي بتمايل وتثاقل متجهة إلى الشيخ وهي ترقب عصام بنظرة مريبة، أجلسها الشيخ في حجره، تساءل عصام والابتسامة ترتسم على شفتيه:

- من هذه الطفلة الجميلة؟

أجابه الشيخ بعد أن قبل رأسها:

- هذي عبير ابنة إياد الوحيدة

نظر إليها عصام بعطف كبير، وتذكر الحب الذي يكنه أبوها لها، إنها طفلته الوحيدة التي لم يرزق بغيرها، على الرغم من أن زواجه من أمه مضى عليه أكثر من ست سنوات، بقيت عبير التي يحب أن يناديها أبوها بـ (عبورة) ذلك العبق الوحيد الذي أثث حياة العائلة وأعاد هيكلتها وبعث في عروقها مسرات الحياة، كانت جدها يحاول أن يعوضها الحنان الذي فقدته بغياب أبيها، في كل يوم كانت تنظر إلى صورته المعلقة على جدار غرفته فتهتف بحفاوة (پاپا)، تساءل الشيخ:

- قلّي يا بني، كيف حاله؟ هل هو مريض؟ هل ينقصه شيء؟
- بالعكس يا عمي، إياد بصحة جيدة جداً ولا يحتاج سوى الدعاء

رفع الشيخ يده وقال بألم:

- اللهم فرّج عنه وعنا وقر أعيننا برؤيته يا رب العالمين
- اللهم امين

عاد الشيخ ليتحدث عن عبير فهي لم تكن مجرد طفلة في حياة أبيها:

- لقد تتعلّق أبوها بها كثيراً، وعندما غاب عنها كانت تبكي كل يوم، إلى إن طال غيابه، واستطاعت أن تنساه، أو تتحاشى النظر إلى صورته أحيانا

ظلت عبير تُلاعب الدمية، وهي تدور مثل حمامة ناصعة البياض، بدت جميلة جداً، مثيرةً للمحبة والفضول، سارع عصام:

- هل تسمح لي بتصويرها يا عمي؟ أود إرسال صورها إلى أبيها
- بالتأكيد يا بني، سيفرح كثيراً عندما يراها، ربما تخفف عنه بعض ما هو فيه

أخرج عصام كاميرته، وأخذ يعاين عبير من زوايا متعددة، وهو يتمتم بأصوات لا يفهمها أحد غيره، أملاً في أن تنتبه إليه، حتى يقتنص لها صورة مناسبة

- عبورااااه .... بس بس بس

أخذ يفرقع بإبهامه في الهواء، حتى يشد انتباهها، وفي لحظة صمت التقط لها صورة جميلة، لكنه طمع بالمزيد، لمحت عبير بريق الإضاءة اللامعة من الكاميرا، ابتسمت وضحكت وانفعلت وشدت دميتها بقوة، وبين لحظة وأخرى فصلت رأس اللعبة عن جسدها، حدث هذا أمام أعين جدها وعصام، حملقت بعصام كأنها تستفهم عن شيءٍ ما، ثم صرخت وانفجرت بالبكاء، ولا تزال الدمية مذبوحةً بيديها، جثةً هامدة لا حراك فيها، لحظ عصام بفطنته التصويرية، أن الذي يجري أمامه يمكن أن يكون صورةً جميلة، وفي غضون لحظات ضبط الكاميرا والتقط صورةً لعبير بوضعها الأخير، بعد اللقطة نظر عصام إلى شاشة الكاميرا ليعاين الصورة فوجدها صورةً مثالية معبرة، ويمكنها أن تكون أجمل لو تم تعديل بعض الألوان فيها.

مضت أيام عديدةً وكان موعد تسليم الأعمال قد اقترب، بدأ عصام يقلق ثانية، في ترشيح الصورة المناسبة، وبعد جهدٍ جهيد استطاع ان يرشح أربع صور مختلفة ومتنوعة في ظروف التقاطها وتصويرها ومحتواها، واستبعد ثلاثاً ورجح كفة واحدة، وفي آخر يوم لتقديم المشاركات، وضع عصام مشاركته، بين يدي حكام المركز الفوتوغرافي، كان يعلم يقيناً أن مشاركته هذه ليست إلا لأجل المشاركة وهو لا يعتقد أن الصورة التي قدمها تستحق النجاح، بل أدنى مستوىً من النجاح، كان يتحدث عن الإمكانات الخارقة التي يمكن للصورة نقلها للقارئ والمشاهد على حدٍ سواء، بل إن الصورة لديه لا تقل عن أهمية القصيدة بالنسبة للشاعر، أو الملحمة أو الرواية أو القصة بالنسبة للقاص أو الروائي.

في صباح الثاني من نيسان يوم عرض الأعمال الفائزة حضر عصام، ببرود تام، كان يراقب فرحة الآخرين واعتزازهم بأعمالهم، في الباحة الكبيرة للمعرض الذي تتزين جدرانه بعشرات الصور والأعمال المتنوعة، دخل عصام ولم يكن في باله أن يحصل على مركزٍ من المراكز المتقدمة، ثمة ثلاث جوائز منوعة للفائزين الثلاثة، جوائز مادية ومعنوية، وجد صورته معلقةً في المعرض ضمن الصور المشاركة، لكن ما لفت انتباهه هو تجمهر بعض الحاضرين أمام صورته، وأخذ بعضهم يلتقط لها صوراً، تجاهلهم واستقل مقعداً بين الجمهور بانتظار الكشف عن الأعمال الثلاثة التي تم تكبيرها ووضع الستار عليها، بانتظار الكشف عنها بالتدريج، المركز الثالث، ثم الثاني فالأول، تملك الأمل قلبه، وتمنى لو أنه قدم، أعمالاً أفضل من العمل الذي قدمه، بدأ مدير الحفل بإعلان بإعلان الكشف عن اسماء الفائزين في المسابقة، كان عصام يُأمل نفسه بالحصول على المركز الثالث، قال المدير، سيتم إعلان الفائز بالمركز الثالث، سادت حالة من الصمت، ثم أضاف:

- الفائز بالمركز الثالث هو . . .

ثم رفع الستار قليلاً عن الصورة، كان الستار يرتفع تدريجياً نحو الأعلى، برزت الملامح السفلية للصورة، الحضور كله يترقب، مياه من الأسف سرعان ما اتضحت أكثر، وإذا بذيل قرشٍ صغير يظهر نصفه السفلي في الماء والعلوي في الهواء، تغيرت ملامح عصام كثيراً، وفقد الأمل بالمركز الثالث وبالمسابقة كلها، فكّر بالمغادرة لكن رغبته في متابعة أعمال الفائزين جعلته ينتظر، استمر رفع الستار فكانت سمكة قرشٍ تحاول التهام سمكة السلمون الصغيرة التي تطير في الهواء ولم يبقَ بين السمكة وفك القرش سوى بضع سانتمترات، كانت هذه الصورة، ثم أذيع أسم صاحب الصورة يعرب عبدالفتاح الطائي، صفق له الجمهور بقوة، ثم تابع المدير:

- وصاحب المركز الثاني هو . . .

بدأ برفع الستار عن الصورة الثانية تمكن الجمهور من رؤية الجزء السفلي منها، شارع نظيف، مفضٍ إلى جدار مزخرف بنقوشٍ جميلةٍ سرعان ما ظهر باب المسجد، تواصل الكشف حتى ظهرت بناية المسجد الكبير بقببه المنثورة على أطرافه، أكمل الرفع مكان آخر ما من المسجد، مئذنته العالية، بهلال شامخ، صاح المدير:

- علي دريد سليم

حياه الجمهور بقوة، فعرف عصام أن للفوز طعماً رائعاً وكم تمنى لو أن الزمن يرجع للوراء، بعد لحظات عاد المدير ليعلن عن الفائز الأول:

- والآن مع الفائز الأول . .

صفق الجمهور بقوة، وبعد ذلك بدأت الستارة ترتفع قليلاً، كانت الأنظار مشدودةً إليها، ظهر أسفل الصورة، كانت ملفعة بالسواد، عندما ظهرت أكثر لم يكن ليتغير شيء فيها، كان الستار يرتفع فيرتفع السواد شيئاً فشيئاً، ظل التشويق على أوجه، ظهر نصف الصورة ولا يزال السواد عائماً على أرجائها، وفي لحظة بهلوانية ماهرة رفعت الستارة بسرعة فظهرت الصورةُ جليةً، امرأة آسرة تكشف الإضاءة الجانبية نصف وجهها، كانت بملامح منكسرة، يحيطها الظلام من كل جانب، كان التوقيع في أسف الصورة يظهر تحته اسم مكتوب بخط اليد (حازم نجم)، هتف المدير بحماس:

- حسام هيثم نجم

ظل عصام واجماً، يفكر في عدم جدوى مشاركته، نظر إلى الأعمال فلم يكن مقتنعاً بأحقيتها بالفوز، كان يعرف أنها جميلة لكن المسابقة ضمت مشاركاتٍ أبهى وأجمل، هم بالخروج لكن تجمهور الحاضرين حول صورته المعروضة دفعه للبقاء ومشاهدة الموقف من بعيد، كان العدد يتزايد، وهو لا يزال جالساً في مقعده، بعد لحظات هتف أحد الحاضرين:

- من صاحبُ هذه الصورة؟

لم يكن يرغب الإجابة، ظل يراقب الموقف بلا تدخل، صاح أحد الحاضرين بعد قرأ توقيعه عليها:

- عصام عبد الرزاق، أين أنت يا عصام؟

لكن مقعد عصام كان خالياً تزايدت صيحات الجمهور:

- عصاااام عصاااام عصاااام

لكن عصام كان خارج المعرض يبحث عن سيارة أجرة تقله إلى البيت.

2014 / 1 / 23